

دكتور شوقي ضيف

الفكاهة في مصر

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



دارالمعارف



تحتاج الفكاهة إلى فضل من
الذكاء، ودقة في الحس، ورهافة
في الذوق والشعور. وكل هذا
لا ينقص المصري. ومن أهم ما يميز
المصريين في عصرهم الحديث روح
الفكاهة، فهم مشغولون بالنكتة
على كل شخص، وعلى كل شيء،
ألهمتهم في ذلك عصور الشدة
والرخاء منذ أن كانوا يحملون
صخور الأهرامات على كواهلهم،
ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم.



دارالمعارف

٤٠٥٤٨٧/٠٢



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٥١١]

رئيس التحرير

رجب البنا

نائب رئيس التحرير
حمدي عباس

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
تصميم الغلاف
شريفة أبوسيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

دكتور / شوقي ضيف

الكتابة فى مصر

الطبعة الثالثة



دارالمعارف

اقرأ

أعلام شهرزاد

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

مقدمة

من أهم ما يميز المصريين في عصرهم الحديث روح الفكاهة المنبثة في أحاديثهم ، فهم مشغوفون بالنكتة على كل شخص وكل شيء . وفي أخرج المواقف وأدقها لا تلبث بارقة الفكاهة أن تلمع وتتألق وترتسم على الأفواه والشفاه .

وليست هذه الروح جديدة على المصريين ، فهي قديمة فيهم ، ترجع إلى أعتق الأزمنة وأعمقها في التاريخ ، فمنذ برزوا على صفحة الزمن وهم يضحكون ويسخرون ويتهاكمون . ألهمتهم ذلك عصور الشدة والرخاء منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم ، ويحنو عليهم واديهم فيلقى في حجورهم بحبه وثماره ، ويملكون معظم العالم القديم ويلقى بين أيديهم بثرواته وكنوزه .

وقد مضت مصر في عصورها القديمة والوسطى وفي العصر الحديث أثناء الاحتلال الإنجليزي البغيض تعاني هذين الضربين المتناقضين في الحياة : ضربى الشدة والرخاء ، الشدة وما يطوى فيها من عسف بعض الحاكمين وظلم المحتلين ، والرخاء وما يطوى فيه من طيبات الرزق . وطبيعى أن يجر هذا التناقض وما يحمل من تضاد شديد إلى الفكاهة والسخرية .

وهيات لمصر أوقات الفراغ الطويلة بين فصلى الزرع والحصاد أن تأخذ الفرصة دائماً كي تنفس عن نفسها وتغسل في معين الفكاهة ما قد يقع عليها من عسف وظلم . وكان توسطها بين الشعوب في رقعة العالم وخصب أرضها وكثرة خيراتها سبباً في أن ينزل بها أجناس مختلفون ، وأن ترى فيهم بديارها غرابة في عاداتهم وأزيانهم وحين يتكلمون بلهجاتهم ، فكان ذلك دافعاً آخر من دوافع الفكاهة . وتحتاج الفكاهة إلى فضل من ذكاء ودقة في الحس ورهافة في الذوق والشعور ، وكل ذلك لا ينقص المصرى كما لا ينقصه حضور البديهة وسرعة الجواب . وهو لا يبارى في اللعب بالألفاظ واستخراج ما فيها من معان مأكرة عن طريق التورية . واجلس في أى مجتمع للمصريين أو فى مقهى من المقاهى وخاصة المقاهى البلدية حيث يجتمع العمال ومن لا عمل له ، فستجد الفكاهة تدور على كل لسان ، وستراهم حين يعجبهم أحد المتحدثين الفكاهيين يقولون إنه « ابن نكتة » دلالة على مدى إعجابهم به .

وهم يروون النكت ويتتبعونها كما يتتبعون أخبار «آخر ساعة»
ومنهم من يقتصر بها على صحبه في مجالسه الخاصة، ومنهم من
يحترفها في الحفلات العامة، وطائفة غير قليلة تحترفها في الصحف
والمجلات، حتى يقبل عليها القراء. وتسقط إلى صحافتنا بعض
فكاهات غربية، ولكن من الحق أن نقول إننا في هذا الباب
نصدر - قبل كل شيء - عن ينابيع لا تنضب في مزاجنا وجوهر
طبائعنا.

وكنا إلى عهد قريب لا نعنى بعرض هذا الباب الفكه في أدبنا،
لأنه كتب في أكثره بلغتنا العامية، وكأننا انصرفنا عنه ترفعاً منا،
أو استصغاراً لشأنه، مع أنه أكثر دلالة علينا وعلى نفسياتنا من كثير
من الأدب الفصيح الجاد. ومن الواجب أن نقرن صفحة حياتنا
الجادة بصفحة حياتنا الفكه، حتى نطلع على حقيقة حياتنا اطلاعاً
تأماً أو كاملاً. وأنتك لتجد مصر وشعبها ممثلين في هذا الأدب
الضحك بأكثر وأقوى مما تجدهما في الأدب الفصيح الخالي غالباً من
الضحك والهزل، لسبب بسيط، وهو أنه ينبع من صميم الشعب
وينطق عن روحه ومزاجه بدون أى تصنع أو تكلف. والصحف
التالية تعرض هذا الباب من أدبنا الشعبي عرضاً تاريخياً موجزاً.
والله الهادى إلى سواء السبيل.

شوقى ضيف

الفُكَاهَةُ

أنواع الفكاهة

كلمة الفكاهة من الكلمات التي حار الباحثون في وضع تعريف دقيق لها ، والسبب في ذلك كثرة الأنواع التي تتضمنها واختلافها فيما بينها ، إذ تشمل السخرية واللدع والتهكم والهجاء والنادرة والدعابة والمزاح والنكتة و«القفش» والتورية والهزل والتصوير الساخر «الكاريكاتورى» .

والسخرية أرقى أنواع الفكاهة ، لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر ، وهى لذلك أداة دقيقة فى أيدي الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات . ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم وهى حينئذ تكون تهكماً أو تقريراً خالصاً . وقد تستخدم فى رقة استخداماً لازعاً إذ يلمس صاحبها شخصاً لمساً رقيقاً كأن يرى مثلاً

مؤلفاً لكتاب من كتب مدارس الروضة ملاء بالرسوم والشخص ،
فيقول له : إنه كتاب كلاسيكى ، يقصد أن ثياب الشخص ليست
عصرية . وعلى ذلك فاللذع والتهكم والتقريع من ألوان السخرية .
وعلى عكس ما نجد فى اللذع من رقة يكون الهجاء ، إذ يعبت
صاحبه بمن يهجوهُ عبثاً ليس فيه رقة ولا خفة ، بل فيه الفظاظه
والخشونة ، فصاحبه لا يهتم شعور الضحية المسكينه التى يعتدى
عليها ، إنما يهتم أن يخنقها خنقاً وأن يبلغ من ذلك الغاية . ومن
أطرف صور الهجاء « كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش » محافظ
القاهرة لعهد صلاح الدين ، فقد وضعه ابن ممتى فى هجائه وبيان
مظالمه وصور ذلك فى صور مضحكة .

والنادرة هى الخبر القصير أو القصة القصيرة التى تضحك ، وفى
العاده تكون مكتوبة ، وكتب الأدب العربى والمصرى جميعاً تمتلئ
بنوادير كثيرة ، فيها أخبار عن المعلمين والقضاة ورجال الشرطة
والبخلاء وغيرهم .

أما الدعابة فأخف ألوان الفكاهة ، وهى فكاهة الأشخاص
الوقورين ، إذ يقولون ما يدعو إلى الابتسام الخفيف لا إلى الضحك
العالى . والمزاح خطوة بعد الدعابة نحو الضحك أو نحو الابتسامه
العريضة ، وهو لا يحمل خبثاً ولا سماً ، وإنما يحمل المرح والشعور
بالابتهاج .

والنكتة فكاهة المجالس ، ولا بد لها من اثنين على الأقل ، إذ

ينتهرز أحدهما كلمة لصاحبه فيمدها ، أو قل يد فكرتها إلى حيث تعبر
عن نقيض ما يريد ، فيحس كأنه صاحبه أو محدثه ينصب له أشراكاً
ليقع فيها . وهو يعتمد في ذلك على ما يسمى في عاميتنا باسم
« القفش » كما يعتمد على التورية في الألفاظ . ويستمد صاحب
النكتة دائماً من سرعة البديهة وخفة الروح ، فيقصد إلى مغالطة
صاحبه في ألفاظه أو مدها كما تقول وكأنه يسرقه أو يسرق منه
كلماته . ويضحك الحاضرون لهذه السرقة العلنية المكشوفة التي تقوم
على المناورات اللفظية .

وإذا بالغ الشخص في مغالطاته ، ولم يعتمد على ثان يجري عليه
هذه المغالطات ، بل استغرق هو نفسه فيها ، حتى خرج إلى
لا منطقية خالصة كان ذلك هو الهزل بعينه ، إذ نرى شخصاً يتكلم ،
وكأنما ألغى عقله إلغاءً ، فيسوق بدهيات في شكل معلومات خطيرة
مثلاً ، أو يخلط في كلامه تخليط النائمين أو الغافلين . ومن خير الأمثلة
لذلك « كتاب نزهة النفوس ومضحك العبوس » لابن سودون الذي
عاش في عصر المماليك حيث نرى السلام المنطقية في كلامه تنقلب
رأساً على عقب .

وهناك ضرب من الفكاهة لا يعتمد على كلمات ولا على حروف ،
وإنما يعتمد على الألوان والخطوط والظلال والأضواء ، وقد شاع في
القرنين الأخيرين بأوروبا ، ونقلناه عنها ، وكان لنا منه حظ في

عصورنا القديمة، ونقصد التصوير الساخر « الكاريكاتورى » الذى يقف عند جوانب الضعف فى جسد شخص أوفى وجهه، ويكبرها كأنما يريد أن ينمى الضعف أو العيب الذى يكمن فيه إلى أقصاه، فنراه ينتهز فرصة، مثل تقويس حاجب، أو انحناء أنف، أو تجعد جبهة، أو انتفاخ خد، أو طول ذقن، أو ضيق عين، ويكبر ذلك مشوهاً ومستغلاً للطبيعة والخلقة. وبذلك تصبح الصورة الساخرة قوية التعبير عن صاحبها، لما أظهره الرسام فيها من تنافر فى أوضاع الجسد أو الوجه.

الضحك وأسبابه

هذه الألوان والأنواع المختلفة من الفكاهة إنما ترجع طرافتها إلى أنها تسبب لنا الابتسام أو الضحك، فتغمرنا موجة من السرور، ونحس بنشوة بهيجة. وتساءل الفلاسفة كثيراً عن علة الضحك، ولماذا كان مظهرًا للسرور والفرح، وكثرت إجاباتهم، فمن قائل إنه صنيع فسيولوجى مادى يتصل بانتقال الشعور انتقالاً مفاجئاً من الأعصاب إلى العضلات، ومن قائل إنه صنيع نفسى ينشأ من إفراغ التعب الذى يصيبنا فى الحياة، إذ يخرجنا المضحك من حياتنا الجادة المجهدة، فنشعر بالراحة ونضحك. ويزعم آخرون أنه انفجار يحدث من انتظار أو من جهد يتحول فجأة لا إلى شيء، بل إلى فراغ مطلق، وكان النتيجة غير المنتظرة هى التى تدفعنا دفعاً إلى أن

نضحك ونفرق في الضحك بمقدار بعدها عنا ومفارقتها للمقدمات التي تسبقها.

ولبرجسون الفيلسوف الفرنسي المشهور كتاب في الضحك بناء على نظرية طريفة هي أننا نضحك على الأشخاص ومنهم، لما أصابهم من تحول أخرجهم عن طبيعتهم العادية المألوفة لنا، إذ نراهم قد تصلبوا، وخرجوا عن عقولهم، وأصبحوا كأنهم آلات، فهم لا يتصرفون تصرف الإنسان الحر المختار، وإنما يتصرفون تصرف الآلات الصلبة التي لا تملك حرية ولا اختياراً. وهو يبدأ كتابه بأننا لا نضحك إلا على أشخاص، فنحن لا نضحك من حيوانات ولا من أشياء في الطبيعة. وليس ذلك فحسب بل لابد أن نكون هادئين تمام الهدوء حتى نصبح صالحين للضحك، أما إذا كنا في حالة انفعال فإننا لا نسر حينئذ ولا نضحك، إنما نسر ونضحك حين نكون في حالة عدم اكتراث أو عدم مبالاة، وأيضاً لابد أن نتصل بآخرين لنضحك، فإذا كنا منفردين أو في عزلة لم نتذوق الضحك، إنما نتذوقه ونغرب فيه حين نكون في مجتمع أومع عدة أشخاص. وأخذ يستعرض فنون الفكاهة ويطبق عليها نظريته الأساسية تطبيقاً دقيقاً لا نقرأه حتى نؤمن بصدق هذه النظرية الطريفة وأننا إنما نضحك من الناس وعليهم حين نراهم أماناً، وقد فارقوا سلوكنا في الحياة الذي يدل على اختيارنا وإرادتنا وتصرفوا تصرف الآلات، فلم يعد لهم منطقنا، إنما أصبح لهم منطق الآلة، أو قل

أصبحوا كأنهم لعب تحرّك بأسلاك سواء في أوضاع الجسم وحركاته
أو في أوضاع الكلمات ومدلولاتها، وارتباطها فيما بينها. والمجتمع
يضحك من هذه اللعب لخروجها على منطق، فضحكه قصاص
عادل لها، لأنها شذت عليه، وتصرفت في القول أو في الوضع تصرفاً
لا يألّفه، فهو يؤدّبها بضحكه منها. فالضحك عقاب وقصاص
وتأديب، ينتقم به المجتمع ممن يتطاولون على منطقهم ومعقوله.
وأياً ما كان السبب في الضحك، فالناس يضحكون دون أن
يعرفوا لماذا يضحكون، وهو ضحك يريح أعصابهم ويشرح
صدورهم، ويقوم أخلاقهم، ويشعرهم بشيء من الصلة فيما بينهم،
ويجعلهم يحافظون على تقاليدهم وأوضاع مجتمعاتهم، ويربي فيهم ملكة
النقد، ويوقظ فيهم التنبيه إلى أخطائهم وأغلاطهم.

وهم يضحكون من كل ما يحسون فيه مخالفة للمألوف،
يضحكون من الممثل الهزلي وإشارات وحركاته، ويضحكون من
الصور الساخرة «الكاريكاتورية» ويضحكون من المغفل والجاهل
والبخيل والجبان، ويضحكون ممن يقلدون أصوات الحيوانات ومن
يحاكون القردة والنسائس، ويضحكون من المفارقات ومن الهزل
الذي يؤدي إلى فوضى الكلام وكأن العقل قد نُوّم، ويضحكون من
الهجاء والسباب والشتم، ويضحكون من النوادر والنكت والمزاح.
ثم هم يضحكون ضحك ازدراء أو ضحك إعجاب أو ضحك سخرية
أو ضحك هزل أو ضحك انتصار أو ضحك عطف. فصور الضحك

أوقل صور الفكاهة ومنابعها كثيرة .
والأمم تختلف في إنتاجها وقدرتها على تذوق ضروبها المختلفة .
والمصريون من أكثر الأمم ميلاً إلى الفكاهة ، ومن هنا كان أدبهم
غنياً بألوانها ، وخاصة ما اتصل بالنكت وخفة الروح .

فِي مَصْرِ الْقَدِيمَةِ

تأصل الفكاهة في مصر

من المعروف أن ما عثر عليه الباحثون من أدبنا الفرعوني القديم لا يعدو رسوماً وأجزاء مبتورة منه ، وحتى ما وجد كاملاً من قصص وغير قصص إنما وجد في قبورهم ، وكانوا يذهبون به في الغالب نحو تمجيد الآلهة .

وليس من شك في أن هذا يحول بيننا وبين الاطلاع الدقيق على فكاهات القوم ، ومع ذلك فأغانيهم ورسومهم وصورهم تدل على أنهم عاشوا في عصورهم معيشة بهيجة . وإذا كنا قد فقدنا نكتهم ونواديرهم فإن الرسوم التي خلفوها تفيض بروح الفكاهة . وفي كتاب « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة » الذي نشرته مكتبة النهضة المصرية مترجماً عن الألمانية عشرات الرسوم والصور

الملاحقة التي تنبئ عن هذا الطابع المتغلغل في نفسية المصريين .
فمن ذلك صورة هزلية لسيدة تترين ، وقد أمسكت المرأة بيدها اليسرى ، وفي نفس اليد « الحق » الخاص بصبغ الشفاه الأحمر ، وفي اليد الأخرى ريشة تطلّ بها شفتيها ، وكل ذلك في وضع مضحك .
وفي صفحة أخرى صورة فكهة لشخص أصلع ، أرسل ذقنه ومد كفيه مدافعاً عن نفسه ، كأنه يمنع من يريد أن يحلق ذقنه أو يصلحها .
ونرى صورة مضحكة لذئب يرعى ماعزًا والمصور يشير بذلك إلى ما يطابق المثل المعروف بين عوامنا إذ يقولون : « حاميها حراميها » حين يشترك خفير البيت في سرقة مثلاً . ومن هذا اللون صورة لمعركة بين القلط والإوز . ومن رسومهم الفكهة رسم نرى فيه جيشاً من الجرذان يحاصر قلعة للقطط وتقدمت فرقة فدائية ، فمدت على القلعة سلماً واعتلاه فدائي كبير ! . وهناك صورة تمثل مباراة في لعبة الشطرنج بين أسد وغزال ، والغزال يأمر الأسد بأن « يكش الملك » والأسد مكش عن أنيابه والشرر يتطاير من عينيه .
ومن الصور التي لا نكاد نراها حتى نبسم صورة أمير وأميرة بونت . وهما واقدان على فرعون لتقديم فروض الطاعة ، وفيها نرى الأميرة قد تضخم نصفها الأسفل وتأخر في وضعه عن النصف الأعلى ، فأصبح شكلها مثيراً للسخرية والضحك .
وما تزال خاصة الضحك على الغرباء منتشرة بين المصريين إلى اليوم ، فهم يضحكون ويتندرون على لهجة الرومي والتركي

وغيرهما. ولابد أنهم ضحكوا كثيراً في زمنهم القديم من أقزام
الزئوج، وكانوا يعهدون إليهم بخدمتهم، ويتخذونهم للهو واللعب،
وقد وجد المنقبون في بعض المقابر طائفة من الأقزام وبجانبيهم
أحدب. وأكبر الظن أنهم جميعاً كانوا مستخدمين للتفريج عند
صاحب المقبرة، أو أنه كان يتخذهم ندماء للترفيه عنه والتسلية
أوبعبارة أخرى أدوات فكاهة وهزل.

التلاعب بالألفاظ

وكل هذه الصور والرسوم تعبير قوى ناطق عن روح المرح
والفكاهة التي تأصلت في نفوس الشعب المصرى من أقدم الأزمان.
وليس بين أيدينا ما يفسر مدى استخدام المصريين القدماء للنكتة
ولكن يظهر أنهم كانوا يتوسعون في استخدامها على نحو ما توسع
فيها أبناؤهم في العصور الإسلامية المختلفة وفي عصرنا الحديث.
ففى كتاب «مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» أنه كان
للمصريين ولع خاص بالتلاعب بالألفاظ، وبين تراثهم ومن
مخلفاتهم نشيد فى مركبة لفرعون أَلْف على أساس التلاعب
بالألفاظ، إذ يحصى مؤلفه أجزاء المركبة ويسمياها، وفى كل مرة
يذكر فيها اسم الجزء الخاص من أجزائها يعود فيذكره مرة ثانية
بمعنى آخر يصف به قوة فرعون. فالكلمة ذات معنيين ويستغلها
صاحب النشيد دائماً فى صنع نشيده متلاعباً بهما.

وهذا التلاعب منبع النكتة التى تجرى فى الحديث، إذ تصبح الكلمة معدة بذاتها لىبرز فيها ذهول اللغة الذى يشبه ذهول أصحاب الغفلة، ففيها شحنتان مختلفتان، والمتحدث اللبق يستغل الشحنتين، فيورى بوحدة منها عن الأخرى، وبذلك يظهر ما فيها من قوة هزلية تضحكنا.

ومعنى ذلك أن الشعب المصرى وضع يده من أقدم الأزمنة على هذه المفاتيح اللغوية وما يطوى فيها من تلاعب، ولا نشك فى أنه استغلها للتفكه والضحك، لأنها بطبيعتها ترشد إلى هذا الاستغلال وأيضاً فإنه كان معداً من حيث مزاجه المرح لاستنفاد كل وسيلة فى هذا الجانب.

ولعل من الطريف أن نذكر هنا ما رواه بعض من اكتشفوا مقبرة حورمحب، إذ ذكر أنهم وجدوا غرفة منحوتة فى الصخر، وقد دفن فيها كلب حورمحب وقرده الأثيران عنده، وكانت دهشتهم كبيرة حين رأوها، فقد وجدوها متقابلين وأنفاهما متماسان فى وضع مضحك، ومضت آلاف السنين قبل أن تقع عين أحد من الناس على هذه الفكاهة.

السخرية من الغزاة

وبهذه الشاكلة كانت مصر الفرعونية تضحك، فلما دهاها ما دهاها من غزو الفرس واليونان والرومان لها ذهبت تنفس عن

عذابها وآلامها وكآبتها بفكاهات مرة مليئة بسموم اللذع والتهكم والسخرية .

وطببعي أن يسخروا ويتهكموا بالفرس لأنهم كانوا غزاة ظالمين ، أما البطالسة فعلى الرغم من أنهم توددوا إليهم وبذلوا كل ما استطاعوا ليكسبوا عطفهم ، وينالوا حبهم ، فإننا نراهم ، وخاصة أهل الإسكندرية ، لا يتركون فرصة تمر بهم دون أن يصيبوهم بسهام تهكماتهم . وقد نبزوا كلا منهم بلقب ميزوه به ، فلقبوا بطليموس الأول بلقب الزمار ، أما بطليموس الثاني فقد أصابوه بغير سهم من فكاهاتهم ، وانتهزوا فرصة زواجه من أخته ، وسلطوا عليه أقذع الكلمات .

ونرى ثيوكريتوس الشاعر اليوناني الذي عاش في الإسكندرية أثناء القرن الثالث قبل الميلاد يشير إلى هذه النزعة في المصريين ، وما يطوى فيها من الفكاهة ، بل من السخرية المؤلمة بقوله : « إنهم شعب ماكر ، لاذع القول ، روحه مرحة » .

ونمضى إلى عصر الرومان فنجد الرومان يقسون عليهم في حكمهم ، وسرعان ما يسلطون عليهم سهام سخريتهم ، وقد كادوا لا يتركون قيصرأ زار مصر من قياصرتهم دون أن يقدموا له هذه الفكاهة أو الفكاهة المسمومة ، وكانوا أحياناً لا ينتظرون حتى يفد عليهم القيصر الذى يريدون قذفه بهذه الحجارة المدمية ، فيصوبونها إليه من بعيد .

وكم من قيصر سلطوا عليه صوائب سهامهم ، فمن ذلك أنهم
نبزوا القيصر فسبسيان بلقب تاجر السردين ، وقالوا إنه لا يساوى
سنة مليعات ، ولقبوا قيصرأ آخر بلقب النسناس المدلل الصغير .
وكانت هذه السخرية الخبيثة تكلفهم أحياناً ثمناً غالياً ، فقد كان
القيصرة يغتاظون غيظاً شديداً ، فيقسون عليهم فى حكمهم . ومع
ذلك لم ينتهوا عن هجائهم ، بل ظلوا يقاومونهم ويسخرون بهم ،
وكان مزاجهم الفكه الساخر كان يضطرهم ويلزمهم دائماً بهذا
الدفاع الساخر .

في العصور الإسلامية الأولى

شعراء فكهون

يُرْفَعُ كابوس الرومان عن صدر مصر، وتضئ فيها تباشير فجر جديد، هو فجر الإسلام، وتصيح ولاية عربية، وتظل معها أدوات فكاهتها وسخريتها. ولا تكاد تثبت شخصيتها وتستقل عن الخلافة لعهد ابن طولون حتى نجد لها شاعراً فكها مشهوراً كان ينبز بالجميل الأكبر، وكان لعبة للأمراء يدحهم وينادهم متظرفاً متعلحاً، يروى لهم النوادر والنكت التي تطرفهم، وهذه إحدى نواذيره، قال: «كان قوم كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى، تعاهدوا فيما بينهم، لكسلهم، أنه إذا سقط في أفواههم شيء أكلوه، وإلا فلا، فسقطت كمثراة إلى جانب أحدهم، فقال له الذي يليه: ضعها في فمي، فأجابه: لو استطعت أن أضعها في فمك لوضعتها في فمي».

وبمثل هذه النادرة كان الجمل الأكبر يخف على ابن طولون وغيره ، وخلفه على هذه الوظيفة من المنادمة والمفاكهة شاعر آخر لعصر الأخشيد فلقبوه بالجمل الأصغر ، وكان مثل صاحبه خفيف الروح له قدرة بارعة على التسلية والترفيه . وكان بجانبه شاعر آخر يسمى سعيداً ، وكان نديماً للأخشيد وكان يؤثره لما فيه من الحلاوة والهزل ، وكان يلقب بقاضى البقر هزئاً ودعابة له .

سيبويه المصرى

لعل مصر لم تعرف فى عصورها الإسلامية الأولى فكها ساخرا على نحو ما عرفت فى شخص يسمى سيبويه المصرى رافق الدولة الإخشيدية ، وكان يظهر التباله والحمق والجنون ، ويضع كل ذلك مسرجا ينفذ منه إلى نقد هذه الدولة الأجنبية ونقد موظفيها المختلفين ، نقدا فيه مرارة وخبث ، وفيه تنفيس عما قد يقع على الناس من ظلم فى هذه العهود الإقطاعية الجائرة .

ولم يكن أحد فى عصره إلا ويخشى معرفة لسانه ، وكان يقف فى الأسواق يصيح بسبه وهجائه والناس يجتمعون ويضحكون . ولم يكن يسب ويهجو بلفظ قبيح ، إنما كان ينهر ويزجر ، مستخدما آية قرآنية أو حديثا أو سجعا يولده لوقته .

ويسوق ذلك بشيء من التخليط ، فيضحك ، إذ يصبح مظهرا للشعوذة وتشويش الفكر ، ويقول السذج مجنون ، ويقول العقلاء

بل جرى لا يؤه ولا يخرق، يواجه الحق ويذيعه دون تدليس أو تزييف.

وطبيعى أنه لم يكن يقصد إلى الإضحاك، فهو مؤمن بما يقول في الإخشيد وغيره، وهو جاد كل الجد. ومن هنا يكون الضحك، لأنه يخالف مألوف الناس، إذ يرونه يعمد إلى سب أميرهم ورؤسائهم فيتجمعون حوله يشاهدونه، وكأنهم أمام مسرح هزلى. فمن ذلك أنه كان يطوف على حمارة يوم جمعة، فرأى الناس محتشدين لرؤية موكب الإخشيد أثناء مروره إلى الصلاة فتوسط الجموع وصاح: «ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة، سلطت عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، وتغلى لهم قلوب واجفة؟» فقال له رجل: «هو الإخشيد ينزل إلى الصلاة»، فقال: «هذا الأصلع البطين، المسنن البدن، قطع الله منه الوتين، ولا سلك به ذات اليمين! أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان؟ لا قبل الله له صلاة، ولا قبل له زكاة، وعمر بجنته الفلاة».

ولا ريب في أن هذا الهجوم على الإخشيد كان يحدث تنفيسا عن الحرج في نفوس سامعيه، فيضحكون ويفرقون في الضحك. وكان يتخذ ذلك دائما منحدرًا له إلى هجائه اللاذع. ومن الطريف أنه كان يورد هجاءه على الناس وهو واقف معهم يعظهم، إذ كان فقيها صالحا، فمن ذلك أنه بغتهم مرة أثناء وعظه، فقال: «حصلت الدنيا

على أقطع وأقرع وأرقع»، يعنى بالأقطع ابن بويه الديلمي صاحب بغداد، وبالأقرع سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب، وبالأرقع كافورا، وكانت قد صارت إليه شئون مصر. وكان يسميه في مواعظه الخصى لا يبالى.

وهذا كله هجاء سياسى لاذع كان يعتمد فيه سيبويه المصرى على مجاميع من الأخطاء فى الكلام ينث فيها سموه، ويسمع الناس من حوله هذا الهجاء، فيقولون بجنون يهذى، وهم يفحصون الأرض بأقدامهم ضحكا وسخرية بمن يعرض لهم. وارتفع نجمه لهذا الهجاء، وجالس أونوجور بن الأخشيد وناداه كما جالس الماذرائى الوزير وناداه. ولم يترك فى عصره موظفا كبيرا ولا قاضيا إلا تعرض له، وكانوا جميعا يرهبونه، ويرسلون إليه بالهبات والهدايا حتى يفدوا أنفسهم منه، ويفلتوا من لسانه. ومما روى الرواة من شعره قوله:

ما ليلة المشتاق با عدت النوى عنه أنيسه
أو ليلة الملدوغ حا ذر مية النفس النفيسه
بأمد من ليل الظرب ف إذا تجوع للهريسه

وفى هذه الأبيات ما يدل على ظرفه، فهو كان ظريفا من ناحية، ولذلك ناداه أونوجور وغيره، وكان من ناحية أخرى هجاء مصميا، يرمى بالكلام، وكأنه يرمى بالسهام.

فِي الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ

الفكاهة السياسية

لا نصل إلى العصر الفاطمي حتى تتسع روح الفكاهة في شعر الشعراء ، إذ أخذوا يرصدون بها كثيرا من الحوادث السياسية . وقد كثر القول بين الناس عن الفاطميين ونسبهم وهل ينسبون حقا إلى فاطمة الزهراء أو لا ينسبون ، ونجد شاعرا ساخرا يتسرب من خلال هذا الشك إلى تأليف مقطوعة ، بلغت به جرأته أن رمى بها على منبر المسجد الجامع يوم الجمعة ، فلما صعد العزيز ثانی خلفائهم تناووها ، فإذا فيها :

إننا سمعنا نسبا منكرا	يُتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا	فاذكر أبا بعد الأب الرابع
أو فدع الأنساب مستورة	وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم	يقصر عنها طمع الطامع

وهذا تهكم شديد، إذ يطلب إلى العزيز وأهله أن يدخلوا في دوائر النسب الواسع إلى آدم ويتركوا دائرة النسب الضيق إلى بني هاشم. وكان المصريون يتندرون بمثل هذا الشعر. وتقدم شاعر ثان فألقى على المنبر في يوم آخر من أيام الجمعة رقعة كتب فيها:

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحقاقة
ان كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

ولعله كان يسخر بذلك من الخليفة الحاكم وترهاته وما كان يدعيه من علم الغيب بل من الألوهية، إذ كانت له شيعة تقول هو ربهم الأعلى ١. ولم تقتصر هذه السخرية السياسية على نسب الفاطميين وسلوكهم، بل اتصلت أيضا بإدارتهم وما كان من توظيفهم لليهود في المناصب الكبرى، فقد احتج المصريون على ذلك بصورة لاذعة، فمن ذلك قول بعضهم:

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزَّ فيهم والمال عندهم ومنهم المستشارُ والملك

وما زال المصريون يعنفون الفاطميين بمثل هذه القطعة حتى أبعدوا اليهود عن أعمال الدولة ودواوينها وكشفوا غمَّتْهم عن صدرها.

الفكاهة الاجتماعية

وهذه الفكاهة السياسية كان يرافقها فكاهة اجتماعية واسعة، وقد كثرت حينئذ مجالس الأدب وكثرت المطارحات والنوادر، وكثر من يحاولون أن يضيفوا إلى طنبور الضحك نغمة بل نغمات، وكان من آثار ذلك أن اتسع النبز بالألقاب، فنجد شاعرا ينبز بالجهجهان وثانيا يلقب بشلّعلع، وثالثا بالكاسات، ورابعا بالوضع، وخامسا بالنسناس، وسادسا بابن مكتسة، وكان ماجنا، يظهر الفقر والتصلع، وله يصف قبح منزله وضيقه وقذارته وأن الشمس لا تدخله :

لِيْ بَيْتٌ كَأَنَّهُ بَيْتٌ شَعْرٍ لَابْنِ حِجَاجٍ مِنْ قَصِيدٍ سَخِيفٍ
أَيْنَ لِلْعَنْكَبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ ، وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِي الضَّعِيفِ
بِقَعَةٍ صَدَّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا مَذْ سَكَنْتُهَا فِي الْكُسُوفِ

وفي كلمة الكسوف تورية واضحة إذ أراد بها الخجل لا كسوف الشمس المعروف. وأراد مرة أن يصور كبر سنه وما أصابه من رجفة الشيخوخة، فألف هذا البيت وهو من قطعة فكهة طويلة :

قَدْ كَبِرَ بِرٍ بِرٍ بِرٍ تَ وَعَقْلِي إِلَى وَرَا
وَوَاضِحٌ أَنَّهُ ارْتَعَشَ أَتْنَاءَ نَظْقِهِ لِكَلِمَةِ كِبَرٍ ، فَأَلْفَ مِنْ رَعَشَتِهِ
الشَّطْرَ الْأَوَّلَ دَالَا عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ ضَعْفٍ وَشَيْخُوخَةٍ .

ابن قادوس الدمياطى

وربما كان ابن قادوس الدمياطى كاتب الإنشاء فى أواخر العصر الفاطمى أهم شاعر فكاه عرفتة مصر الفاطمية ، فقد روت له كتب الأدب طرائف كثيرة من فكاهاته ، وهى فكاهات فيها لذع وتهكم ، فمن ذلك تهكمه بشاعر أسود وكان صديقا له ، ومما قال فيه :

إن قلت من نارٍ خلقتَ وقُتتَ كل الناس فيها
قلنا صدقتَ فما الذى أطفأك حتى صرت فحشا

وقال فيه أيضا :

ذو عارضٍ كالغراب لونا وشاربٍ مثل ريشٍ ببقا
وكان ابن قادوس ماهرا فى استخدام مثل هذه التهكمات ، وما يتصل بها من سخرية . وكان يتحول أحيانا هاجيا هجاء مرا فلا يستحى ولا يخجل . ومن نظيف هجائه :

وليس كلاما ما يقول وإنما يجيب الصدا من رأسه من فراغه

وهذا إقذاع فى الهجاء ، كان لا يقوله حتى يدور على كل لسان فى عصره ، لما يحسن فيه من تسديد السهم إلى ضحيته ، وله فى وصف بعض المنافقين فى زمنه :

حوله اليوم أناسٌ كلهم يُزْهَى بِرَأْيِهِ
وهو مثل الماء فيهم لونه لون إنائه

وكأنه أراد أن يسلط على هذا المنافق نورا يفضحه ، فلا يعود إلى
نفاقه أبداً .

دعائيات وتوريات

في كل جانب من جوانب الشعر لهذا العصر نجد صورا من
هذه الفكاهات الساخرة ، كما نجد صورا من الفكاهات الخفيفة التي
لا يراد بها إلى أكثر من الدعابة والمزاح ، كقول شاعر يسمى
الجليس بن الحباب يشكو طبيبا تعهده وهو محموم ولم يشفه دواؤه ،
فقال متندرا عليه :

طبيبٌ طِبُّهُ كغرابٍ بَيْنَ	يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيَتِي وَبَيْنِي
أَقَى الْحُمَى وَقَدْ شَاخَتْ وَبَاخَتْ	فَرَدُّ لَهَا الشَّبَابَ بِنَسَخَتَيْنِ
وَدَبَّرَهَا بِتَدْبِيرٍ لَطِيفٍ	حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حُنَيْنٍ
وَكَانَتْ نَوْبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ	فَصَيَّرَهَا بِحَذَقٍ نَوْبَتَيْنِ

وهو يشير بالنسختين إلى وصفته أو دوائه وأنه كان ورقتين
يتعاطى ما فيهما . وعرض لادعائه وما يزعمه من أنه تلقن تدبير
دوائه عن شيخين من شيوخ الطب في العصر العباسي هما سنان بن
ثابت وحنين بن إسحق . وكانت الحمى تزوره مرة كل يوم

فأصبحت تزوره بدوائه مرتين . وكل ذلك 'يمزح به الشاعر في خفة وبدون ألم أو إيذاء .

وأكثر الشعراء في هذا العصر من لعبة التورية ، على نحو ما مر بنا عند ابن مكنسة ، ويقول شاعر آخر من الشعراء لهذا العهد في زماره :

وزامر يكذب فيه عائبه تكثر من صنعته عجائبه
يجب صبر المرء عنه حاجبه فيشكر الشارب منه شارب
كأنما ناياته ذوائبه

وواضح أنه ورى في حاجب وشارب وذوائب . وأشرنا من قبل إلى أن المصريين القدماء عرفوا هذه اللعبة من لعب الفكاهة . ولعل ذلك يفسر لنا كيف أن مصر هي التي سبقت بلاد العالم العربي إلى إذاعتها في الأدب شعره ونثره ، وظل لها فيها طابع الخفة والرشاقة ، فقد مرنت على إتقانها من قديم الأزمنة ، وكأنما لقن الآباء أبناءهم في لغة الضاد هذا الحس الدقيق الذي يعرف كيف يستغل المعنيين المختلفين لكلمة واحدة ، ويبرز ذلك في شكل يصيب السامع بشيء من الذهول ، فيضحك ، لترقبه شيئا حدث عكسه .

فِي الْعَصْرِ الْأَيُّوبِيِّ

الروح الفكاهية

ظلت للمصريين في هذا العصر روحهم الفكاهية على الرغم مما كان فيه من حروب صليبية، فهي النبع الذي لا يجف في أنفسهم، مهما شغلوا بحروب وأحداث. وقد ذهبوا يوغلون في لعبة التورية الخفيفة، ومن أشهر من عنوا بها القاضى الفاضل وزير صلاح الدين، وكاتبه ابن سناء الملك، غير أن أكثر ما صنعاه يغلب عليه الجانب التعليمى، ولذلك كانت تورياتها لا تثير فينا الضحك إلا نادرا. ولا شك في أن البهاء زهيرا الذى جاء من بعدها كان أحلى منها روحا وأخف دما، وقد كان يكثر في شعره من التظرف والمزاح والدعابة، ولعل ذلك أحد الأسباب في كثرة الأساليب الدارجة عنده على نحو ما نرى في قوله:

أُرِحْنِي مِنْكَ حَتَّى لَا أَرَى مِنْظَرَ الْوَعْرِ
فَقَدْ صَرْتُ أَرَى بَعْدَكَ عَنِ الرَّاحَةِ الْكِبَرَى
فَمَا تَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَلَا تَنْفَعُ فِي الْآخِرَى

فكلمة «بعدك راحة» و «لا تنفع» من الكلمات التي تدور على
ألسنة المصريين. ومن مقطوعاته الفكاهة هذا المزاح مع صديق له
على بغلته :

لَكَ يَا صَدِيقِي بَغْلَةٌ لَيْسَتْ تَسَاوِي خَرْدَلَهُ
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعَبْوُ نَ عَلَى الطَّرِيقِ مَشْكَلَهُ
وَتُخَالِ مَدْبِرَةً إِذَا مَا أَقْبَلْتُ مُسْتَعْجَلَهُ
مَقْدَارُ خَطْوَتِهَا الطَّوِيلُ لَةً - حِينَ تَسْرِعُ - أَمْلَهُ
تَهْتَزُّ وَهِيَ مَكَانَهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَهُ

فالمصريون لم ينسوا طبعهم أثناء الحروب الصليبية، بل لقد
خلف لنا هذا العصر طرفة فكاهية مشهورة هي :

كتاب الفاشوش في حكم قراقوش

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكاهة، بالمعنى الدقيق للفكاهة، في
تاريخ مصر الإسلامية. ألفه الأسعد بن ممتاق صاحب ديوان الجيش
والمال لعهد صلاح الدين. كان آباؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى

القاهرة في عهد الفاطميين فقرَّبوهم وفوضوا إليهم كثيرا من شئونهم وأعمالهم . فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين صاحب الشام ، وأصبح إليهما أمر مصر ، وجدنا هذه الأسرة تدخل في الإسلام ، ورعاها صلاح الدين ، فجعل رئيسها الخطير بن مماتي قِيَّما على ديوان الجيش ، فلما توفي خلفه ابنه الأسعد في عمله ، ثم أسندت إليه الشئون المالية ، فأحسن تدبيرها وتصريفها .

واشتهر الأسعد بن مماتي في عصره بسرعة البديهة واللدخ في النادرة ، وقد تعلق بشخصية عاصرته ، هي شخصية قراقوش التركي أحد قواد صلاح الدين وأصفياه . وكان فيه على ما يظهر شيء من الشدة والقسوة . وكان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها في حروبه الصليبية ، وهو الذي قام على بناء قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح الدين . وقد وضع عليه ابن مماتي الحكايات المضحكة التي تصور حمقه في أحكامه وغفلته وبلاهته ، ونسَّق هذه الحكايات في كتاب سماه « كتاب الفاشوش في حكم قراقوش » ونراه يستهله بقوله : « إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزما فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق . ولا يقدر أحد من عظم منزلته ، أن يرد على كلمته ، ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما

ما أنزل الله به من سلطان، صنف هذا الكتاب لصالح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين».

ويزعم بعض المستشرقين، وهو الأستاذ كازانوف الذي عني بنشر الكتاب وبحثه إلى أن ابن ممتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض السخرية فقط من ظلم قراقوش بل ألفه أيضا سخطا على دولته الأيوبية وهو زعم مخطئ إذ كان ابن ممتى من رجال الدولة وموظفيها الكبار، مما يؤكد أنه لم يرد إعلان السخط على الدولة الأيوبية، وكل ما يمكن أن يقال أنه ربما أراد أن يسخر ممن تستخدمهم تلك الدولة من الأجانب أحيانا في حكم مصر، وكان قراقوش تركيا. وفي رأينا أنه ظللم ظلما بينا بوضعه عليه هذه النوادر الساخرة من حكمه بدليل ثقة صلاح الدين الأيوبي في نيابته عنه بمصر واعتماده عليه في تدبير شئونها، ولولا وثوقه بكفايته ما فوضها إليه. وفيما يلي بعض تلك النوادر المفتراة على قراقوش.

من نوادر الكتاب

أول ما تلقاة في الكتاب من هذه الحكومات أن سيدة حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها، فعجب أن تكون امرأة بيضاء مملوكة لسيدة سوداء، فرد شكواها عليها، مدعيا أنها ليست السيدة، بل هي الجارية، والجارية هي السيدة، وهم بحبسها

لولا أن تدخلت الجارية فعتت عن سيدتها .

وتمضى حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب : فمن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحي الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا « أجرودا » كان ما يزال يعيث بلحيتهما ، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما المتهم ، فلم يجد له لحية . حينئذ قلب الوضع في القضية ، إذ ظن أنها هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته ، فصاح في غلمانه : « ودوها (خذوها) إلى السجن ، ولا تخرجوها حتى تطلع ذقن هذا الرجل » . وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن وتصورا . ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءته يوما بأحد غلمانه ، وقد قتل نفسا محرمة بغير حق ، فقال : « اشنقوه » فقيل له : أنه حدّادك الذي يَنْعَلُ لك الفرس ، فإن شنقته انقطعت منه ، ولم تعد تجد من ينعل لك فرسك ، فنظر أمام بابه ، فرأى رجلا قفاصا ، فقال : اشنقوا القفاص وسيبوا (اتركوا) الحداد . وبذلك أنقذ الموقف في ظنه ! .

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هو المنطق الذي ألفناه ، فإن قراقوش يتصرف في القضايا بحق غريب ، وهو حق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقتنا ، حق فيه طيش وفيه غفلة وفيه ما يذهل ويحير ، وفيه ظلم صارخ بل ظلم مضحك . وهل يريد ابن مِمّات غير ذلك ؟ إنه لا يريد إلا أن يعرض علينا قراقوش في صور مضحكة تضحكننا من حكوماته في الناس

وما تتضمن من غباء ونزق وما تخفى في باطنها من ظلم يجسمه ابن ممتق تجسيميا. وإنما نضحك لا للظلم الذى وقع على هؤلاء الأشخاص فقط، وإنما أيضا للتباين بين المقدمات والنتائج، فسيده تدخل عنده تشكو له خادمته، فإذا هما تخرجان في حالة شاذة، إذ نرى السيدة أصبحت خادمة، والخادمة أصبحت سيده. وكذلك الشأن في الرجل «الأجروء» فقد دخل بدون لحيه، وخرج ولا بد له من لحيه، ألا أنها نتفت، أو قل: دخل جانيا وخرج مجنيا عليه. وفي النادرة الثالثة نرى القاتل يبرأ من جنايته، والبريء يؤخذ بفعلته. وكأننا لسنا بازاء دار من دور الحكم والقضاء، وإنما نحن بازاء ملعب هزلى، نرى عليه رجلا يأخذ سمت الحاكمين، ويصطنع شاراتهم، ولكنه لا يكاد يبدأ النظر في القضايا والحديث مع الخصوم: المدعين والمتهمين، حتى يشوش عليه الأمر، فإذا هو يحكم دائما حكومة مهوسة، وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذى يقلب الأوضاع في قضاياها قلبا يزرى بالعقول، لأنه يلغيها إلغاء، يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم، ويردنا إلى فكر مضطرب معوج لا نظام له، فكله اضطراب وفوضى.

ونستمر في قراءة كتاب الفاشوش، فإذا ابن ممتق يقص أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يهيء له حساب القمح والشعير والفول والحمص، وصدع القاضى بأمره، إلا أنه وضع الحساب كله في صحيفة واحدة، فاختلط الأمر على قراقوش، وظن أن القاضى

خلط هذه الأصناف بعضها ببعض ، ولولا ذلك ما استطاع أن يجمعها في صحيفة واحدة ، وأمر بحبسها . وتنبه القاضى للمسألة ، فأرسل إليه من الحبس بحساب كل صنف في صحيفة على حدة . حينئذ سُرَّ قراقوش ، وعفا عنه قائلا : « لقد تعبت يافقيه ! نَقَّيت هذا من هذا وذا من ذا ، زَفَّوه في المدينة » . أَرَأَيْتَ إلى ابن مماتى كيف يسخر من قراقوش ، إذ جعله يظن حين أفرد القاضى كل صنف بصحيفة أنه نَحَّى الأصناف بعضها عن بعض ، بعد أن خلطها بعضها ببعض .

وينقلنا ابن مماتى من هذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل عنها طرافة ، وذلك أن النيل توقف بمصر أياما ، فنظر قراقوش ، فرأى جمال السقايين وهى تسير في شوارع القاهرة عشرين عشرين ، فقال يا غلمان ! نادوا في المدينة : « قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يملئ (يحمل ماء) أحد من البحر إلا جملا واحدا » ففعلوا ذلك ، فأوفى النيل ، فقال : ياهؤلاء كيف رأيتم رأيى عليكم ؟ ما هو إلا رأى مبارك . وكأن قراقوش ظن أن هذه الجمال هى التى تنقص ماء النيل ، فتمنع الفيضان ! وأيضا فقد فاته أنه إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل الماء مجتمعة ، ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة ، فحكمه من هذه الناحية لا نتيجة له ، ولكنه قراقوش مُثْلَة عصره والعصور التالية في الغفلة والغباء .

وعلى هذه الشاكلة شهَّر ابن مماتى بقراقوش وحكوماته في

الناس ، وهو لم يبلغ ذلك ، ولم يصنعه ، بالشعر ، وكان شاعرا ممتازا ، وإنما بلغه وصنعه بهذه النوادر الشعبية التي اختار لها لغة المصريين الدارجة ، وكأنه كان يريد أن يطابق بين ما يرويه وبين اللغة الحقيقية التي كانت تدور بين قراقوش ومن حكم بينهم من الناس ، حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة . ولعله كان يريد لهذه النوادر أن تشيع بين العامة ، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة . وهى فعلا قد شاعت ، فإن المصريين فى مدنها وريفها كلما نزل بهم حاكم ظالم قالو «دا ولا حكم قراقوش» . والمعقول أن يكون على الأقل لهذه الحملة التي حملها ابن مماتي على قراقوش أصل من حكوماته أو أحكامه .

ووفق ابن مماتي توفيقا منقطع النظير حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الساخر ، وهو عرض ربما أراد به - كما أسلفنا - أن يشوه من تصطنعهم الدولة الأيوبية من الأجانب فى أعمالها وشئونها ، ونراه يستمر فيروى تلك النادرة ، وهى أن شيخا وصيبا احتكما إلى قراقوش فى دار . كل منها يدعى أنها له ، فلما مثلا بين يديه قال قراقوش للصبي : أمعك كتاب يشهد لك ؟ ثم رجع إلى نفسه أو إلى صوابه ، فترأى له أن الدار لا تكون إلا للشيخ الكبير . حينئذ قال للصبي : يا صبي ادفع له داره ، وإذا صرت فى عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك الدار !

وعلى هذا النسق ما يزال ابن مماتي يصور قراقوش فى هذه

الصور الهزلية التي كان يسمر بها المصريون لعهد صلاح الدين سمرا فيه هو وتسلية . والغريب أن ابن ممتى حين تصدى لقراقوش في هذه النواذر لم يترك منه جانبا إلا شوهه ومسحه حتى مَعرفته الدينية ، فقد قص أن شاعرا تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره ، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش : « يامقرئ ! لقد قرأت قراءة طيبة » . فقد ظنه يتلو قرآنا ، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر . وليس ذلك كل ما يريده ابن ممتى به ، فإنه يريد شيئا وراء ذلك . يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحا مما يقال فيه ذما . وواضح من كل ما سبق أن ابن ممتى عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية هزلية . وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى ، إذ نسبت إليها كثيرا من القصص المضحكة ، بل إننا نجد كتبا جديدة تروى نواذر قراقوش ، فقد ألف السيوطى فى أواخر عصر المماليك كتابا استعار له نفس اسم كتاب ابن ممتى ، ولكنه يختلف عنه فى كثير من نواذره ، مما يدل على أنه من صنعه ، أو على الأقل من صنع الأجيال التالية لابن ممتى ، وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية رمزية ، لكل حاكم أجنبى لمصر ، فكان المصريون طوال الحكم التركى فى عصر المماليك وبعده يقصون نواذره ، ويضيفون إليها نواذر جديدة .

من النوادر في رواية السيوطي

ومن النوادر التي ذكرها السيوطي أن عملة (نقودا) سُرقَت في زمنه، فقال لأصحاب العملة: «الحارة بتاعتكم لها درب (يريد بابا) فقالوا له نعم، فقال: اذهبوا اثتوني به، ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه، فقال: مدوه (يريد أن يضربوه) فقالوا يامولانا هذا خشب لا يعقل، فقال: افعلوا ما أمركم به، فمدوه وضربوه. ونزل قراقوش، ووضع أذنه بجانبه، وجعل يوشوشه، فلما فرغ قال: اجمعوا لي باقي أهل الحارة. فلما حضروا قال لهم: الدرب يخبرني أن الذي سرق العملة على رأسه ريشة، وكان سارق العملة واقفا بجملة الناس، فتوهم، ورفع يده إلى رأسه، فرآه قراقوش، فأمر به، وقرره بالضرب، وأحضر العملة ودفعها إلى أصحابها». وما من ريب في أن هذه النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا في عصره.

ويحكى السيوطي أيضا أنه «كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا، وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما، فزاد عليه الدين، وما مآت والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده حيا، فدخل هو والدائنون عليه، وغسلوه، وكفنوه ووضعوه في النعش، وهو يستغيث فلا يغاث، وجاءوا حول تابوته بذاكرين يصيحون حوله، فلما دخلوا للصلاة عليه (في المسجد) اتفق أن قراقوش كان مارا، فنزل وصلى عليه، فلما سمع الميت بذلك قال: الحمد لله جاءني

الفرج ، فجلس في التابوت ، وقال : يامولانا السلطان ! خلّص حقي
لى من ولدى ، فإنه يريد دفنى بالحياة ، فقال له : كيف تدفن والدك
بالحياة؟ فقال الولد: كذب على يامولانا السلطان ما غسلته
إلا وهو ميت ، ولا حملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء يشهدون بذلك ،
فقال للحاضرين : أتشهدون بذلك ؟ فقالوا : نشهد بما قال الولد ،
فالتفت قراقوش للميت ، وقال : أنا جُنتت ! أصدقك وحدك وأكذب
هؤلاء الحاضرين ، روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموقى ،
ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم . فحملوه ودفنوه حياً ، في ذمة
قراقوش .»

ولاشك في أن هذا نموذج هزلى ويحكى السيوطى أيضا من
نوادره أنه طار له بازى ، فقال « اقفلوا باب النصر (زويلة) فإن
البازى لا يجد له موضعا يطير منه » .

وكان الغفلة تشخصت أو قل تجسست فأصبحت هذا الشكل
الإنسانى لهذا الحاكم المسمى قراقوش . وهو شكل إنسان فى
الظاهر ، أما فى الباطن فهو شىء معوج ، وكأنه لعبة تحرك بأسلاك
الغباء والغفلة واللامنطق ، فليس له منطق معقول ولا مفهوم .
وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش تصبح شخصية مثالية
لكل حاكم أجنبى فى مصر ، ولذلك كثر القصص حوله ، وكثرت
النوادر التى تُعزى إليه . وهناك كتاب ألف عنه فى عصر متأخر ، وهو

يذهب مذهب الكتّابين السابقين ، ويسمى « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » .

والحق أن ابن ممتى نجح نجاحا كبيرا فى تصوير شخصية قراقوش وعرضها أو عكسها فى هذه المرايا المحدبة من فكاهاته ونوادره . وأكبر الظن أن كلمة « كراكوز » التركية التى تطلق فى الشام وتركيا على خيال الظل ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش وإن كان هناك من يذهب إلى أنها مكونة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و « جوز » أى عين ، فىكون معناها « العين السوداء » يقولون لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة على الناس كانوا من الغجر الجوالين . وقد دخلت الكلمة إلى مصر ثانية باسم « أراجوز » . ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على مدى توفيق ابن ممتى فى التشنيع على قراقوش والتندر عليه .

فِي الْعِصْرِ الْمَمْلُوكِيَّ

السخرية من الحكام الترك

لعل هذه الروح المصرية الفكهة لم تتسع في عصر كما اتسعت في عصر المماليك ، إذ فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية ، وخذل المصريون إلى رخاء شاعت فيه فنون من اللهو واللعب ، وتفجرت ينابيع الفكاهة في أنفسهم .

وإن من يتصفح آثار الشعراء لهذا العصر لا يلبث أن يفرق في الضحك لكثرة مادأبوا عليه من مزاح ومداعبات ، ففي كل مكان وفي كل ناد لاهمٌ للشعراء إلا أن يتحفوا معاصريهم بنكتهم ونواديرهم ، وهى نكت ونوادير لم يقفوا بها عند رفقاتهم وأصدقائهم من المواطنين، بل تعدوهم إلى ساستهم وحكامهم الأجانب من الترك المماليك . فمن ذلك : لما قُتل السلطان حسن وكان فيه ميل

للهو وحب للنساء قال بعض الشعراء متهكماً:

لما أتى «للعاديات» و«زلزلت» حفظ «النساء» وما قرأ «للواقعة»

وواضح أنه استعان بهذه السور من القرآن الكريم ليعبر بها عن
هو هذا السلطان وما يريد من سخرية به وبسيرته ، وفي كلمة
« الواقعة » تورية واضحة بمقتله .

وكان الشعراء ماهرين في استخدام مثل هذه التورية بحكامهم
ينفسون بها عن حرجهم وضيقهم بهم ، وقد يهجونهم هجاء صريحاً
لا يورون فيه كقول بعضهم في وزير يسمى البباوى :

قالوا البباوى قد وزَّر فقلت كلا ، لا وزَّر
الدهر كالدولاب لا يدور إلا بالبقر

وفي كتب التاريخ أنشودة عامية كان يتغنى بها العامة لعصر
السلطان بيبرس الجاشنكير ، وكانوا يكرهونه كما كانوا يكرهون
نائباً تترى له نبزوه بلقب « دقين » تندرا عليه لأنه كان أجرد
وانتهزت العامة فرصة غياب النيل عن مواعده ، وغنت في
المتنزهات :

سلطاننا ركين ونائبو دقين

يجينا الماء من اين

هانوالنا الأعرج يجى الما يدحرج

ويريدون بكلمة « ركين » أنه مركون ، أما الأعرج فهو الناصر
محمد بن قلاوون ، إذ كان به بعض عرج ، وكانت العامة تؤثره على
بيبرس ، وتريده على العرش .

وأينما وليت وجهك في صحف هذا العصر وجدت الشعراء
يضحكون معاصريهم على حكامهم وأمرائهم ضحك سخريه وهزه
تارة ، وضحك مزاح ودعابة تارة . فمن ذلك مارواه المؤرخون من
أن الطبرس والى باب القلعة ، وكانوا ينزونه بالمجنون ، أقام
عمارة فوق قنطرة ، وغقدها قبوا ، فسموها المجنونة ، وقال
شاعرهم :

ولقد عجبت من الطُّبرس وصَحْبِه

وعقوْلهم بعقوده . مفتونه

عقدوه عقدا لا يصحّ لأنهم

عقدوا لمجنون على مجنونه

وكان بين أمراء الممالك أمير يسمى طشتمر ، وكانت العامة
تنزهه باسم « حمص أخضر » فاستغل الشعراء هذا النبز أو هذا
اللقب ، وتندروا عليه كثيرا ، فمن ذلك مداعبة بعضهم له وقد رجع
من سفر :

لما رجعت إلينا من بعد ذا البعد والبين

خلناك تحنو علينا يا حمص أخضر (بقلبين)

ومعروف أن الحمص الأخضر ذو قلبين مجموعين . ويقول فيه
شاعر آخر متمما للنكتة في اسمه أو في لقبه :

وبالدنا حزت مالا ملأت منه الخزانة
وكم عليك قلوب ياحمص أخضر (ملانه)
وفي كلمة ملانه تورية واضحة لأن العامة في مصر يسمون بها
« الحمص الأخضر » .

التوسع في التورية والفكاهة

توسع الشعراء في هذه التورية اللفظية أثناء هذا العصر ،
واشتهر بها السراج الوراق والحماسي ، وإن في اسميهما مايدل على
طابع العصر ، إذ نرى بعض أصحاب الحرف الذين يميلون للنكتة
يدخلون في آفاق الشعر ، فيمزجونه بروحهم الخفيفة .
ومن أجمل توريات الوراق قوله في شخص دعاه إلى طعام فيه
الخضار المعروف باسم رجله :

وأجتي أضافنا ببقله
قد مدُّ في وجه الضيوف (رجله)

ودائما نجد هذه التورية تلمع في صحف الشعراء جميعا ، فهي
بدع العصر ، وكل شاعر يطلبها . ومن أمثلتها قول بعضهم وقد بلغ

النيل ستة عشر ذراعا ، فعم وادى الجيزة حتى صافح الهرم :
قالوا علا نيل مصر في زيادته

حتى لقد بلغ الأهرام حين طما
فقلت هذا عجيب في بلادكم

أن ابن ستة عشر يبلغ (الهرما)
وكل شيء كانت تقع عليه أعينهم كان معرضا لهذه التوريات .
فمن ذلك قول بعضهم في لعبة الشطرنج المعروفة .

إن صاح في الأقران لي يئدق
تموت منه الشاة في جلدها

والبيدق : اسم العسكرى في الشطرنج . وتعرضوا لأسمائهم
ولألقابهم كثيرا ، يستخدمونها فيما يريدون من تورية ، فمن ذلك
قول شاعر في عالم يسمى ابن جمعة :

عجبا كيف فاق أهل المعاني
في فنون العلوم وهو (ابن جمعه)

ومن ذلك قول آخر فيمن يسمى عيسى موريا في اسمه ، لأن
العيس تطلق على الإبل وهو يلاحظ ذلك :

عيسى ومن مدحوه ماشمت فيهم رئيسا
وما رأيت أناسا لكن حميرا و (عيسا)

ومن أطرف ما جاء في ذلك قول ابن الصائغ في الشيخ علاء الدين بن دقيق العيد مستغلا لاسمه ، ضاحكا على ذقنه :

لعلاء الدين ذقنٌ تملأ الكف وتفضلُ
فاعمل المنخل منها (لدقيق العيد) وأنخل

ويدل ذلك من بعض الوجوه على أن هذه الروح الفكهة الخفيفة كانت منتشرة في الناس جميعا حتى في الشيوخ . ومن هذا اللون من التوريات البديعة أن بدر الدين الدميري كان يلقب بكتكوت ، فقال فيه بعض أصدقائه :

إن الدميرى صديقى فلا أسمع فيه قول واشٍ ولاخٍ
ولا أرى كالغير تقيحه بل هو عندى من (ملاح الملاح)

والتورية واضحة في كلمة ملاح الملاح ، ويظهر أن هذا النداء على الكتاكيت كان معروفا في مصر منذ ذلك الحين . وهناك شخص كان يسمى على باى بن برقوق نبزه بعض أصدقائه باسم زلابية ، وأشيع ذلك ، فقال بعض الشعراء .

قد شبهوه بمن يُدعى زلابيةً
وصحَّ تشبيههم والأب برقوقُ
لكنهم فاتهم في الوزِّ نسبته
فإن إسم أبيه نصفه (قوق)

وهو يستغل استغلالا واضحا كلمة برقوق لينسبه في الإوز .
ومن التوريات التي رويت أيضا عن هذا العصر تورية للشاعر
الفكه إبراهيم المعمار صنعها متهمكا على شخص طلب إليه أن يصوم
«الأيام الستة البيض» بعد شهر رمضان ، فقال متماجنا :
شهرُ الصيام تولي فراقه يوم عيدي
ف قيل شَيْخٌ بَسِيتُ فقلت أيضا وسيدى
وأكثرنا من التوريات في ألوان الطعام ، وخاصة القطايف ،
ونسجوا فيها كثيرا من المداعبات والممازحات . ول بعضهم في غلام
كان يطوف صباحا بأقداح الفول :
يطوف بأقداح (العوافي) على الوري
ويُضْبَح بالخسير الكثير (يفسول)
والتعبير بأقداح العوافي ظريف وكذلك التعبير بكلمة ي فول ،
وهو يريد بها من الفول لا من الفأل وإن تضمنته . ولابن نباتة
الشاعر المشهور يشكر صديقا على هدية ثمينة من الديكة :
وصلتْنا ديوكُ بِرِّكُ تزهو
بوجوهٍ جميلةٍ مستجاده
كلُّ عُرْفٍ يروقُ حسنا وإني
أرتجي أن تكون (عُرْفا) وعاده
وأهدى إليه صديق آخر تمرا ردينا ، فكتب إليه بهذين البيتين
مؤديا له حقه ، ذاكرا فضله :

أرسلت تمرا بل نوى فقبلته
بيد الوداد فما عليك عتاب
وإذا تباعدت الجسوم فودنا
بأق ونحن على (النوى) أحباب
وعلى هذه الشاكلة كانت التورية على كل لسان ، واستخدمها
الشعراء في كل شيء نظموا فيه وفي كل موضوع حتى في الرثاء ، إذ
نجد ابن نباتة يرثي السلطان الأفضل صاحب حماة إحدى بلدان
الشام ، فيقول :

وما مات إذ ماتت بحزن نساؤه
وماتت بأحزان البلاد (حماة)
فورى في كلمة حماة ، ولم ينقذ الرثاء الكلمة منه . وفي هذا دليل
واضح على أن الشعراء اندفعوا في هذا العصر اندفاعا شديدا نحو
التورية ، وكأنما أعجبهم فيها ماتتضمنه من خفاء ، ومن لعب وعبث
أيضا إذ تصبح الألفاظ والكلمات كالأشراك ، لاتصيد طيرا ، وإنما
تصيد أناسا ، وهم يرون في طريقهم وحياتهم العامة تحت أعين
الناس ، إذ ماتلبث شباك الشعراء المنصوبة دائما أن تعلق بهم ، فإذا
هم ضحكة الجماهير

الشاعر الجزار
من أهم الشعراء الذين اشتهروا حينئذ بهذه اللعبة اللفظية

شاعر كان يحترف الجزارة ، ومن أجل ذلك عرف باسم الجزار . وكانت روحه خفيفة ، واستغلها لافي التورية فحسب ، بل أيضا في فكاهة من طراز آخر ، إذ نراه يستخرج الضحك منا على منزله وملابسه ومطاعمه وكل ما يتصل به ، فمن ذلك قوله يصف داره :
 ودار خرابٍ بها قد نزلتُ ولكنْ نزلتُ إلى السابعة
 فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
 تساورها هفواتُ النسيم فتصغي بلا أذن سامعه
 وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجدَ حيطانها الراكعه
 إذا ما قرأتُ (إذا زُلْزِلَتْ) خشيتُ بأن تقرأ (الواقعه)
 وكان يكثر من إضحاك الناس على حياته ومعيشته ، فلم يكن يبالي أن يصف داره هذا الوصف المضحك . ومن دعاياته مع أبيه ، وكان قد تزوج في شيخوخته من امرأة مسنة :

تزوج الشيخُ أبي شيخَةٍ ليس لها عقلٌ ولا ذهنٌ
 لو برزت صورتها في الدجى ما جسرتُ تبصرها الجَنُّ
 كأنها في فرشها رمةً وشعرها من حولها قطنٌ
 وقائلٌ قال فما سنها فقلتُ ما في فمها سنٌ

وتدل هذه الصورة الساخرة التي أخرج فيها زوج أبيه أنه كان يميل إلى التهريج ، ومع ذلك فقد كان لاذعا في كثير من تهكماته وسخرياته كقوله في بخيل :

لا يستطيع يرى رغي — فَاْ عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسَرُ
فلو انه صلي — وحا شاه - لقال الخُبْرُ اكبر

الأزجال الفكهة

وشاعت في هذا العصر الأزجال ، وأصبحت معرضا من معارض
الفكاهة وما تتضمنه من هزل . وكانت أقرب إلى نفوس العامة .
فهى بلغتهم الدارجة ، لغة حياتهم اليومية . ومن أطرف الأزجال التى
وصلتنا عن عصر المماليك زجل رثى فيه بعض الزجالين الفيل
« مرزوق » الذى أهدها تيمور لك إلى سلطان مصر ، وفيه يقول على
لسان زوجته :

وقالت الفيله امراتو	مَنْ لى مُعِينٌ
سهم الفراق قد صاب قلبى	يا مسلمين
ونا غريبه هندیه	قلبى حزين
وكان هذا الفيل زوجى	لا مَعْيَره
واليوم كان آخر عمرو	فى القنطرة
وعيطت حتى أبكت	جيرانها
من كتر ما ناحت ناحوا	لأحزانها
من نارها صارت تلطم	يؤدانها
حتى الزرافة جاءتها	متحسره
تبكى على الفيل الى مات	فى القنطرة

وما من ريب في أن هذا الزجال كانت لديه روح فكهة خفيفة كما كانت لديه لفتات ذهن بديعة ، وقد ظهرت هذه اللفتات في تصويره لزوج الفيل الهندية ، وما كان من لطمها «بودانها» أو آذانها كما ظهرت في استغلاله لما عرف من صمت الزرافة وما يبدو عليها من تأمل وحزن ، كأنما أفلت منها شيء ، ولذلك جاء بها هنا لتساعد الفيلة في بكانها .

واكبر زجال هزلى في هذا العصر هو ابن سودون صاحب « نزهة النفوس ومضحك العيوس » ولكن قبل أن نتحدث عنه وعن كتابه لابد أن نقف عند المسرح الهزلى المعروف بخيال الظل ، ونذكر كلمة عنه وعن مسرحية طريفة أخرجها عليه ابن دانيال ، وهى أبدع ما أنتج هذا المسرح من فكاهة في العصور الوسطى .

خيال الظل - طيف الخيال

خيال الظل هو المسرح الشعبى القديم الذى تحول فيما بعد إلى «الأراجوز» وقد عرفت مصر والشعوب الإسلامية منذ القرن السادس للهجرة ، إذ تسرب إليها من الصين على ما يظن . ونحن لا نصل إلى عصر المماليك في القرن السابع للهجرة حتى نجد شاعرا يعرف بابن دانيال يخصص حياته أو يكاد للعمل على الارتفاع بهذا المسرح . وقد ألف له ثلاث مسرحيات هى مسرحية طيف الخيال ، ومسرحية عجيب وغريب ، ثم مسرحية متيم . وكلها

ألفها في عهد الظاهر بيبرس ، وتصور الأولى تصويرا هزليا الحياة الاجتماعية والثقافية بمصر أثناء عصرها ، أما الثانية فتصور سوقا مصرية يدخلها واحد بعد واحد ، ويتحدث كل منهم بدوره ، فنضحك لأن ابن دانيال يمثل على لسان كل منهم لهجة الجالية التي ينتسب إليها والتي نزلت مصر حديثا ، أو يمثل على لسانه حرفته التي يحترفها ، وكأننا جمدت ألسنتهم جميعا عند صور معينة من الكلام . وأما الثالثة فخاصة بالحب وحيل المحبين ، وفيها صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش .

ومسرحية طيف الخيال هي أبداع المسرحيات الثلاث ، بل هي أبداع مسرحية في تاريخ خيال الظل المصري ، ونرى ابن دانيال يستهلها بقوله :

« كتبت إلى أيها الأستاذ البديع ، والماجن الخليع ، لازال سترك رفيعا ، وحجابك منيعا ، تذكر أن خيال الظل قد مجّته الأسماع ، ونبت عنه لتكراره الطباع ، وسألتني أن أصنف لك من هذا النمط . فصدني الحياء فيما رمته منى ، أن ترويه عنى ، ولكنى رأيت تمنعنى عن هذا المرام ، يوهمك أنى قاصر عن هذا الاهتمام ، واهن الفكرة ، عاجز الفطرة ، عن غزارة الينبوع ، وإجابة الخاطر المطبوع ، فجلت في ميدان خلاعتى ، وأجبت سؤالك لساعتى ، وصنفت لك من بابات المجون ، والأدب العالى لا الدون ، ما إذا رسمت شخوصه ، وبوبت منصوصه ، وخلوت بالجمع ، وجلوت الستارة بالشمع ، رأيته بديع

المثال ، يفوق بالحقيقة ذاك الخيال ، فإذا دُعيت إلى مجلس السرور ،
فأخرج طيف الخيال ، واستبد بالنشيد ، وغنَّ في الدست (ضرب
من النغم) هذا القصيد :

خيالنا هذا لأهل الرُّتب	والفضل والبذل وأهل الأدب
حوى فتون الهزل والجد في	أحسن سِمْطٍ وأتى بالعجب
فانظره يامن فهمه ثاقبٌ	ففيه للعرفان أدنى سبب
إذ قام فيه ناطقٌ واحد	عن كل شخص ناظر واحتجب
مذاهب الفضل به جمّة	فنقّطوه سادق بالذهب
ترجمته طيف الخيال الذي	حكى هلالا طالعا بالحذب

فإذا فرغ الرئيس من هذا الإنشاد ، شرع فيما بنى وشاد ، ثم
ينادى : يا طيف الخيال ! يا كامل الاعتدال ! فيخرج شخص
أحذب ، وينقص كالبازي الأشهب ، فيسلم سلام القادم ، ويقف
مطرقا كالواجم ، فيرد الرئيس عليه السلام ، ويتلقاه بهذا المديح قبل
الكلام :

قسما بحسن قوامك الفتان	يا أوحدا الأمراء في الحُذبان
يأُمُشبه الغصن الرطيب إذا انتنى	من حَدْبتيه يمسُّ بالرمان
يا منحجلا شكل الهلال بقده	حاشاك أن تُعزّي إلى نقصان
ماعاب قامتك الحسود جهالة	الا أجبتَ مقالَه ببيان
هلا يزين المتن إلا رِدْفُه	حُسنا فكيف بمن له رِدْفان

ولنعم أسنمة الجمال وحملها ذات الجمال لللقى الأظعان
والعود أهدب وهو ألهى مطرب ولقد سمعت بنغمة العيدان
ويرد طيف الخيال . لا فض الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة
قفاك ، ثم يرقص على عادة الخيال ، ويغنى بيوت الأزجال :
سلام على السادة الحاضرين سلام المشوق الكتيب الحزين
سلام على من حوى ذا المقام
من السادة الأتقياء الكرام
فهم خير من خوطبوا بالسلام وأكرم من صوفحوا باليمين
ومن قبل رقصى بهذا الخيال
ومن قبل أن أبتدى بالمقال
أعظم ربّ العلا ذا الجلال إله تعالى على العالمين
ومن بعد هذا أصلى على
النبيّ الذى جاءنا بالهدى
نبيّ كريم هدانا إلى صراطٍ هدى فى البرايا مبين
وندعو لسلطاننا بالبقا
وبالنصر والفتح والإرتقا
فلولاه مازال عنا الشقا فذاك المطاع القوى الأمين
وأسأل رب العباد الغفور
يديم لنا هؤلاء الحضور
ويبقىهم أبدا فى سرور فقولوا معى يارفاقى آمين

ويقول: « السلام عليكم أيها السادة ، ودمتم في نعمة وسعادة .
اعلموا أن لكل شخص مثالا ، وقد قيل في الأمثال إنه يوجد في
الأسقاط^(١) مالا يوجد في الأسفاط . على أن لكل أسلوب طريقة ،
وتحت كل خيال حقيقة ، وفي الهزل راحات من كلال الجد ، والنحس
نظير السعد ، وقد يَمْلُ المليح ، وَيُحِبُّ القبيح . وفي القهوة^(٢) سلوة
الأحزان ، لولا خفة الميزان ، ومطاوعة الشيطان ، وعصيان السلطان ،
وحُدُّه الحدود . وإننى من حين توبتى من هذه الخصال ، وتوديعى
لأخى وصال ، ورجوعى من الموصل الحدياء^(٣) إلى الديار المصرية في
الدولة الظاهرية ، سقى الله عهدا ، وأعذب في الجنان وردها ،
وجدت تلك الرسوم دارسة ومواطن أنسها غير آنسة ، عافية الآثار ،
ساقطة الجدِّ بالعثار ، وقد هزم أمر السلطان ، جيش الشيطان ،
فانكفت ألسنة البواطى ، وتابت البغايا والخواطى ، وتأذى الخُلاع
غاية الأذية ، وصُلب نَبَّاذ^(٤) في عنقه نباذية ، وقال من قال :
لقد كان حَدُّ السكر من قبل صَلْبِهِ
خفيفَ الأذى إذ كان في شَرْعنا جَلْدا
فلما بَدَا المصلوبُ قلت لصاحبى
ألا تُبْ فإن الحدَّ قد جاوز الحدَّ

(١) الأسقاط : الساقطون من الرجال ، والأسفاط : الحفائب والأوعية .

(٢) القهوة يريد بها الخمر .

(٣) جعلها حدياء لأن طيف الخيال منها وهو أحذب .

(٤) النباذ : بائع النبيذ .

« وشاعت الأخبار، وقوى الإنكار، وانكسر الخمار، وانطحن المزار^(١). فدعاني بعض الأخلاء إلى محله، وأنزلني بين قومه وأهله، واعتذر إليّ لتقصيره في إكرامي، ولاختصاره في الضيافة إذ لم يأت بمرامي، وقال: قد غلب على ظني أن أبا مرة^(٢) قد مات، وعُدَّ من جملة الرفات (الحطام)، فقم بنا نبيكه، ونصف الحالة هذه ونرثيه، فابتديت وقلنا بيتا ببيت:

مات - ياقوم - شيخنا إبليس
 وخلا منه رُبْعُه المأنوس
 وهو لو لم يكن كما قلت مَيِّتًا
 لم يغيِّرْ لحكمه ناموس
 أين عيناه تنظر الخمر إذ عُطِّ
 حل منها الراوق والقدريس^(٣)
 والبواطى^(٤) بها تكسِّرُن والخمَّ
 سارُّ من بعد كسرها محبوس
 وذوو القَصْف ذاهلون وقد كا
 دت على سَيْلها تسيل النفوس

(١) المزار بائع المزد : نبيذ النرة .

(٢) أبو مرة كناية عن إبليس .

(٣) الراوق : المصفاة ، والقدريس : إناء للخمر على ما يظهر .

(٤) البواطى : آنية الخمر الزجاجية .

كم خليعٍ يقول ذا اليوم يومٌ
 مثل ما قيل قَطْرِيرٌ عَبُوسٌ
 وفقى قائلٍ لقد هان عندي
 بعد هذا في شربها التَّجْرِيسُ
 أين عيناه تنظر المِزْرَ قد أو
 حش منه الماجورُ والقادوس
 والقَنَانِي مَكْسَرَاتٌ كما قد
 كُسِرَتْ في دجى الليالي الكُوسُ
 وترى زنكلون^(١) يَزْعُقُ: زيتو
 ن وناتو يصيح : يا جاموس
 أين سُكْرُكَي^(٢) وطاجنةُ الفا
 ر وأين المِزْرَاق والدُبُوس
 نهبوهن والطراطيرَ والطا
 رَ وضاعت خريطتي^(٣) والفلوس
 أين عيناه والحشائش تُحَرِّقُ
 ن بنارِ تُراع منها المجوس

(١) التجريس : التثديد والتشهير .

(٢) هذه أسماء الخمارين .

(٣) السكركة : نبيذ النرة المسكر .

(٤) الخريطة : حافظة النقود .

وقضيبٌ ونرجسٌ وسعادٌ
باكياتٌ ونزهةٌ وعروس
ذى تنادى حريفها^(١) لا وداعٌ
لا عناقٌ لا ضمٌ لا تبويسُ»

ثم يقول: «والله قد سطا علينا الزمان وصال، وفرق بيني وبين
أخى وصال، وما قصدت هذه الديار إلا في طلبه، ولا تغربت عن
أوطاني إلا بسببه» فيقول طيف الخيال: «يا أمير وصال يا كامل
الخصال» فيخرج جندي بشربوش، وشنبه منفوش، ويتبادل مع
أخيه التحية والكلام نثرا وشعرا ويمزجانه بمجون وفحش. وعلى هذا
النحو تدور المسرحية أو قل بعبارة أدق الملهاة بين الأحدب القصير
وبين أخيه الأمير وصال، وقد استخدم فيها ابن دانيال السجع، ولم
يلتزم العربية، فنطق بكثير من عامية مصر، ولم يتمسك بصرف
ولا نحو. وهذا طبيعي لأنه يصدد ملهاة شعبية.

ولعل من الطريف أن هذه الصورة التي يستهل بها ابن دانيال
الملهاة صورة حقيقية من حيث التاريخ الخالص، فهو أصله من
الموصل، ونزل مصر لعهد الظاهر بيبرس، فوجده قد أبطل تعاطي
«الحشيش» والمسكرات، وأمر بإحراقها وتخريب بيوتها، وأراق
ما فيها من نبيذ وخمر. واستغل ذلك ابن دانيال في أول مسرحيته،
فأذاعه في هذه الصورة الهازلة، يريد أن يسلى الناس ويمتعهم.

(١) الحريف: الزبون.

ونغضى في الملهاة فإذا الأمير وصال يطلب كاتبه التاج بابو،
ويحدثه في توقيعات وودائع وفي حسابات الأراضى والأملاك، ويقرأ
عليه منشورا طويلا أمره بكتابه، كما يقرأ تقليدا بولاية وينشد
قصيدة طويلة بين يدي مولاه. ويتماجن الكاتب، وهزأ بطيف
الخيال وقصره وحديثه، فيلقبه انتقاما منه بَصْرَ بَعْرَ في مقابل شاعر
قديم كان يسمى صُرْدَر.

وأخيرا يقول الأمير وصال لأخيه طيف الخيال: «قد عزمت على
ترك مسالك الخلاعة، والتوبة المخلصة لله والعمل بعمل أهل السنة
والجماعة، فقد دنا الرحيل، وما بقى إلا القليل، فاطلب لى أم
رشيد الخاطبة، وأن كانت كالتى تخرج بالليل حاطبة، لأنها تعرف
كل مليحة بمصر والقاهرة» فينادى طيف الخيال: «يا أم رشيد!
يا ست العبيد»، فتخرج العجوز، وتقول: «مُسَيْتَم بالسعادة،
ولا زلتم فى نعمة وسيادة، وفى خير والخير عادة! يا أولادى لا بليتتم
بالكبر، وثقل الجسم والسمع والبصر. من هذا الذى طلبنى فى الليل
الدامس، والدروب مغلقة والطرف ناعس، وأزعجنى من رقدتى
والنجوم راكدة، وكل صبية مع عشيقها راقدة». فيقول لها طيف
الخيال: «طلبك الأمير وصال». ويدور بينها وبين الأمير وصال
حوار يكشف لها فيه عن مرامه، فتهديه إلى فتاة ذكرتها بالخير
وتصف له حسنها وجمالها. ويشكرها ويحضر ولى أمرها والشاهد،
ويقول الشيخ الذى يعقد القران:

« الحمد لله ستار العيوب ! وعالم الغيوب ! والمؤلف بين القلوب ،
وأشهد أن لا إله الله غافر الذنوب ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله
الصادق المصطفى المحبوب ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة
دائمة الوجود ، هادى الأمة ، وكاشف الغمة » . ويترك الشيخ هذا
الجذ فيتحدث هازلا عن الأولاد ، والزوجة الصالحة قائلا :
« والزوجة المباركة هي الحافظة للعيال ، الجامعة للمال ، والمعدة لحسن
المال » ، ثم يقول : « وهذا الأمير وصال ، مشكور الخصال قد عزم
على الاتصال ، بالست المصونة ، والدرة المكنونة على ما أصدقها به
فى هذا الزواج وهو مائة معجلة ، وأربعة وأربعون مؤجلة » ويقول له
قل قبلت ، فيجيبه : قبلت ولبس ما عملت . وعندها تطلق أم رشيد
البخور ، وترش الماورد على الحضور . فيقول الأمير وصال : لا بد
من تدبير الحال ، وتجهيز المال . على أنى الليلة أفلس من طنبور ،
وينشد :

أُمسيتُ أفقرَ من يروح ويغتدى
ما فى يدي من فاقتي إلا يدي
فى منزلٍ لم يحوِ غيرى قاعدا
فإذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة
ومخدة كانت لأم المهتدى^(١)

(١) يريد أنها بالية عتيقة فهى من العصر العباسى كانت لأم الخليفة المهتدى .

مُلْقَى عَلَى طَرَاةٍ فِي حَشْوِهَا
قَمَلٌ شَبِيهُ السَّمِّ المتبَدِّدِ
وَالْبَقُّ أَمْثَالُ الصَّرَاصِرِ خِلْقَةً
مِنْ مُتَّهَمٍ فِي حَشْوِهَا أَوْ مُنْجِدٍ
يَجْعَلُنْ جِسْمِي وَارِثًا فَتَخَالَهُ
مِنْ قَرَصِهِنَّ بِهِ نَدُوبُ المَجْلَدِ
وَتَرَى بَرَاغِيثًا بِجِسْمِي عُلِقَتْ
مِثْلَ المَحَاجِمِ فِي المَسَاءِ وَفِي الغَدِ
وَتَرَى البَعُوضَ يَطِيرُ وَهُوَ بَرِيشَةٌ
فَإِذَا تَمَكَّنَ فَوْقَ عَرْقٍ يَقْصِدُ
وَالْفَارَ يَرْكُضُ كَالْخَيُْولِ تَسَابَقَتْ
مِنْ كُلِّ جَرْدَاءِ الأَدِيمِ وَأَجْرَدِ
يَأْكُلْنَ أَخْشَابَ السَّقُوفِ شَبِيهَةً
فَارَاتِ نَجَّارٍ جُذْنُ بِمَبْرَدِ
وَتَرَى الخُتَنَافِسَ كَالزَّنُوجِ تَصَفَّفَتْ
مِنْ كُلِّ سَوْدَاءِ الأَدِيمِ وَأَسْوَدِ
دُهُمٌ إِذَا طُرِدَتْ أَرْتَكُ لِحَاجَةٍ
فِي عَدُوِّهَا وَالْوَيْلُ إِنْ لَمْ تَطْرُدِ
وَلَرَبَّمَا اقْتَرَنْتُ بِصُفْرِ عَقَارِبِ
قِتَالَةٍ مِثْلَ الحَمَامِ الرُّكْدِ

وتقيم لى عند المساء زُبَانَهَا^(١)
 فأراه وهو كإصبع المشهد
 وكأنما الزُّنْبُورُ أُلْبِسَ خلعةً
 موشيةً أعلامها بالعسجدِ
 مترنم بين الذباب مفردٌ
 لا كان من مترنم ومفردٌ
 وإذا رأى الخفاش ضوء ذبالةٍ
 عندى أضراً^(٢) بضوئها المتوقد
 حشرات بيتٍ لو تَلَقَّتْ عسكراً
 ولّى على الأعقاب غير مردد^(٣)
 هذا لى ثوبٌ تراه مرقعاً
 من كل لونٍ مثل ريش الهددِ
 لولا الشقاوة ما وُلدت فليتنى
 إذ كان حظي هكذا لم أولد
 ولكيف أَرْضَى بالحياة وهمتى
 تسمو وحظي في الحضيض الأوهـد

(١) زبَانَهَا : قرنها .

(٢) أضـر : كف بصره .

(٣) مردد : متردد حائر .

ويجب على ذلك طيف الخيال بقوله : « يا أمير وصال ! عهدتك .
ذا مال وجمال ، وخيل وبغال » فيرد الأمير وصال : « مال المال ،
وحال الحال ، وزهد الذهب ، وسلب السلب ، وفُضت الفضة ،
وقعدت النهضة ، وفرغت الكاس ، بطون الأكياس » . ثم يقول : إنني
ما أقدمت على زواجي ، إلا بعد ضرورتي واحتياجي ، وينشد
قصيدة طويلة في مجونياته القديمة . وأثناء ذلك تدخل أم رشيد وتأمره
أن يستعد للزفاف على عروسه ، وأن يكثرى أو يستأجر عشرين
شمعة ، ويحضر المغنية والماشطة ، وتقول إنها أحضرت له أم شهاب
الدمشقية . يقول ابن دانيال :

« ويدخل الأمير وصال ويخرج في زفة ، وقدامه المغاني والشموع
منصّفة ، ومن خلفه البوقات والطبول ، وهو راكب على فرس من
أحسن الخيول ، ثم يترجل بأدب وناموس ، ويبرز للجلا والمواشط
بالعروس ، وتُجلى عليه بالخلعة والشربوش ، وتخطر مستورة الوجه
بمبديل مذهب منقوش ، فإذا كُشف عن وجهها الحمار ، شهقت
شهيق الحمار . وإذا هي من أكبر الدواهي بأنف كالجبل ، ومشافر
كمشافر الجمل ، ولون كلون الجعل^(١) ، وأجفان مكحولة بالعمش ،
وخدود مضرجة بالنمش ، والعين غين ، والزين شين » .

وحينما رآها الأمير وصال خرَّ صريعا من الاختلال . ثم يشب وثبة

(١) الجمل : ضرب من الخنافس .

الأسد إذا غضب وصال، ويضرب المواشط والعروس، ويتفرقون وهم خائفون. ويخرج طيف الخيال، فيقول له الأمير وصال: أرايت ما صنعت به أم رشيد، فأحضرها وزوجها الشيخ علق. ويحضر زوجها، ويشكو من كبر سنه، وينشده بعض أشعار له يبكي فيها شبابه وقوته واحتماله وما كان من مجونه القديم. وينتصر له الشاعر صرُبعرُ، وينشد على لسانه هذه الشكوى من زوجته:

أنا أشكو من زوجةٍ صَيَّرْتِي
غائبا بين سائر الحُضَارِ
غَيَّبْتَنِي عَنِ بَما أَطْعَمْتَنِي .
فأنا الدهرَ مفكراً في انتظار
غبت حتى لو أنهم صفعوني
قلت كفوا بالله عن صَفْعِ جَارِي
دارَ رأسي عن باب داري فبالد
به اخبروني يا سادتي أين داري
غفر الله لي بما رُحْتُ للبحر
ر من البرد أَصْطَلِي بالنار
وتجردتُ للسباحة في الآ
ل^(١) لظني به الزلال الجاري

(١) الآل : السراب .

ولكم قد رأيت في الزَّير شَيْخاً
وهو جاثٍ في الماء كالعِيَارِ
شيخ سوءٍ كالثلج ذقنا ولكن
وجهه في سواده كالقار
لم يَغْظَى منه سوى أنه عبٌّ
س مثلي وافترَّ مثل افتراي
فاعتراني رعبٌ وناديت ما كند
ت أظن اللصوص في الأزار
أين قوسى وأين درعى؟ الحقينى
أم عمرو بصارمى البتار
أن أمت كنت في الغزاة شهيدا
أو أعش كنت أشطّر الشطار
ثم أثخنتُ ذلك الزَّير ضربا
بحسامى حتى هوى لانكسار
وجرى الماء فاخشيت وإلا
كنت أقفُو الآثار في التَّيار
ولكم قد عصبتُ رجلى لرؤيا
أوطأتني حُلما على مسمار
ولكم رمت قلعَ ضرسٍ ضروب
بعد ما ضرَّ غايةَ الإضرار

فإذا بي قلبت بعد عنائي
 واجتهادى القوي من أوزارى
 ورحى حُرَّتْها لطحن فمازل
 ت ضلّالا أدور حول المدار
 وأنادى وقد سثمت من الرُّك
 ض إلى أين منتهى مضمارى

ويستمر صُربَعُ في هذه الشكوى، أو قل في هذا الهزل، الذى
 صور فيه نشوة خمرة يغيب فيها صاحبها عن حسه وشعوره تصويرا
 بديعا. وهو يختم هذه الشكوى بقوله:

أنا لو رمت للعلاج طبيبا
 ما تعدّيت دِكة البَيْطارِ
 بعد ما كنت من ذكائى أدري
 أن بابى من صنعة النجار
 أخزِرُ البِيض قبل أن يكسروه
 أن فيه البياض فوق الصّفار
 وبعينى نظرتُ كوز نحاسٍ
 كان عندي أقوى من الفخار
 وكثيرُ منى على كُر سِنى
 حفظُ هذى الأمور مثل الصّغار

وينادى طيف الخيال زوج أم رشيد، ويقول له : « قد ظهرت عليك دلائل الكبر، ورأيت بالمشيب ما فيه للعين معتبر » فيقول : « أجل، وقد قرب الأجل »، ويظهر ضعفه وهرمه ومرضه، فيطلبون له طبيباً يسمى المعين بن سديد، فيقول كلاً أنه الذى قضى على زوجتى أم رشيد، فيقول له الأمير وصال : « بالله هل ماتت ؟ » فيقول الزوج : « وفاتت »، وينشد شعراً نوح به عليها، وفيه يقول :

ساعدونى بالنُّوح والتعديد
بعد فقد العجوز أم رشيد
أى ست يا لهف نفسى عليها
هلكت آخر الليالى السُّود
فانديبها يا أم طوغان وابكى
فقدتها إن فقدتها يوم عيدى
أم طوغان وانديبها وغنى :
يا لىالى الوصال بالله عودى

ويقول طيف الخيال : أستغفر الله العظيم من هذه الخصال، وأعوذ بعفو الغفار، من تحمل الأوزار، والعمل بعمل أهل النار، فالإنابة أجمل، ونحن نقول ما لا نفعل. ويقول الأمير وصال : يا أخى طيف الخيال، ما بقى إلا الارتحال، وقد عزمت على الحجاز، وخرجت بالحقيقة إلى المجاز، وقصدت غسل هذه الآثام

بما زمزم والمقام ، ونويت زيارة سيد الأنام ، صلى الله عليه وعلى آله الكرام . اجعلنى نصب عينك ، وهذا فراق بينى وبينك . ويسُدُّ الستار .

وهذه الملهاة تعد طرفة نفيسة من حيث البناء التمثيلي الذى أعطينا القارئ فكرة مختصرة عنه ، فالحوادث والشخوص واضحة ، وهناك تفاصيل كثيرة تتداخل فيها لم نحصها إحصاء ، لأن ذلك يخرج بنا من جهة عن هذا العرض السريع ، ولأنها من جهة ثانية تتعمق فى العبث والمجون . وهذا نفسه ما أراده ابن دانيال . ولم يترك شارة من هيات الشخوص ولا ثيابهم ولا سمة من دوافعهم وعواطفهم دون أن يكشفها كشفا تاما . وليس هناك أى اصطدام بين شخص وأقواله ، بل كل شئ يجرى فى منطق التمثيلية ، وقد صورت البيئة التى عاش فيها الشخوص تصويرا بارعا ، حتى أحداثها السياسية ، فابن دانيال يدخل بعينه فى كل ما حوله ، وبعثه ناطقا سواء من حيث علاقات الرجال والنساء فى عصره أو من حيث علاقات الحكام بالمحكومين .

ونشر منذ أول المسرحية بأننا مسوقون إلى نهايتها فى تسلسل منطقي ، قلما يظهر فيه نشاز . وكل هذا يخدم غايات الكاتب المسرحية ، وهى غايات كلها فكاهية ، أراد بها إلى تسلية أهل القاهرة . وقد اتسع فى استغلال مجاميع من الأخطاء المضحكة ، واختار موضوعا موقفا لعرضها هو موضوع الخطابة فى تلك

العصور، والدور الذى كانت تقوم به وما كان يحدث فيه من أغلاط فى فهم حقيقة الزوج وأيضا فى فهم حقيقة الزوجة المحببة. وإن اللوحة التى عرض فيها شكوى صُربّر من الزوجة لتظهر لوحة كاملة للاستغراق فى نشوة المسكرات، وهو ما يزال بها حتى يغمسها فى ألوان من فقدان الشعور والإحساس الخارجى، فيبدو الزوج فى هذه اللامعقولية المضحكة، أو قل فى هذا الذهول الذى لم يعد يرى فيه الأشياء على حقيقتها، فهى تنعكس دائما فى عينه على صور خيالية شتى، وكأننا إزاء شخص يحلم، فهو ليس فى وعيه، بل وكأننا إزاء شخص نُوم عقله، فأصبح يهذى هذا الهذيان المضحك. وبذلك كان ابن دانيال الكحال بباب الفتوح طرفة عصره، وكان خفيف الظل، سريع النكتة، فنادم السلطان خليل بن قلاوون، ونادم الوزراء والأمراء، فكان قرّة أعينهم وفرحة أنفسهم، لهذا البوق الفكاهة الذى ظل ينبفخ فيه حتى آخر حياته.

نزهة النفوس ومضحك العبوس

هذا عنوان ديوان أُلْف فى العصر المملوكى أيضا، أُلْفه ابن سودون، وكان يعيش فى القرن التاسع للهجرة، وكان إماما ببعض المساجد، إلا أنه اتخذ الهزل منهجا له فى حياته، فطار اسمه، وتنافس الظرفاء فى الحصول على شعره الذى يذهب جميعه مذهب الضحك والفكاهة.

وعُنى بجمع هذا الشعر في الديوان، وأضاف إليه طائفة من الحكايات الفكاهية. وأغلب الديوان من اللفظ العامى الشعبى، ومن يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لفته ولغتنا المصرية الدارجة الحديثة. وربما كان في ذلك بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ وأنها لا تتطور الا بقدر محدود، فكثير من أمثال هذا الديوان وألفاظه لا تزال جارية تحت آذاننا في عصرنا الحاضر. والشئ الذى يلفت حقا في هذا الديوان أنه أُلْفُ كله في ضروب من الهزل والفكاهة، ولسنا نعرف شخصا قبل ابن سودون كتب ديوانا من الشعر، جميعه هزل وفكاهة ودعابة، أو على الأقل لسنا نعرف في مصر شاعرا قبله احتكره الهزل هذا الاحتكار.

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة في تاريخ أدبنا المصرى الشعبى، لأنه يفصح إفصاحا واضحا عن مزاج المصريين في هذا الجانب الفكاهة الذى تشتهر به مصر في عصورها المختلفة. ومن يقرأ ديوانه يلاحظ أنه كان يعتمد في فكاهاته على المفارقة المنطقية، فهى المفتاح الذى ينصب منه نغم الهزل عنده، وكان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة، هى أن يقف بين يديك موقفا جادا يريد أن يروى لك بعض العجائب ولكنه لا يبدأ في ذكرها، حتى تحس تباينا ونبوا وشذوذا عن المنطق المألوف. وبذلك تسترسل في الضحك، لا لسبب، إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك، فقد كنت على استعداد لكى تستمع إلى أشياء غريبة، فإذا بك تستمع إلى بدهيات

مسرقة في البدهة . ومن هنا يأتي الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى ، وكأنها تهوى من أمكنة عالية ، هي أمكنة المنطق والعقل الواعي ، فنضطرب معها ، ولا نلبث أن نضحك في غير نظام ، بل في فوضى كفوضى الكلام الذي نسمعه . وقرأ هذا الشعر :

عجبٌ عجبٌ هذا عجبٌ	بَقَرَا تَمَشَى وَلَهَا ذَنْبٌ
ولها في بُزَيَّزِهَا لَبَنٌ	يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب ما في مصر يُرى الـ	كَرْمٌ يرى فيه العنب
والنخل يرى فيه بلحٌ	أيضا ويرى فيه رُطْبٌ
« أوسيم » بها البرسيم كذا	في الجيزة قد زرع القصب
والمركب مع ما قد وسقت	في البحر بحبل تنسحب
والناقة لا منقار لها	والوزة ليس لها قتبٌ
لا بد لهذا من سببٍ	حَزْرٌ ، فَزْرٌ ، ماذا السبب

وواضح أنه يستهل القطعة بقوله « عجب ، عجب » وننتبه ظانين أننا سنستمع إلى عجائب وإذا هو يورد علينا بدهييات في صورة من التباله ، تجعلنا نحس عدوانا على منطقنا ، وخاصة حينما نصل إلى تعجبه من أن الناقة لا منقار لها والإوزة ليس لها قتب ، وكأنه يظن أن الناقة من الطير والإوزة من فصيلة الإبل . رأيت إلى هذا التعاكس ، ومع ذلك فابن سودون يدهش لما يرى من هذه الغرائب ، ويتساءل متحيرا عن سبب ذلك ، ويقرن تساؤله بكلمة « حزر فزر »

التي تلوكها العامة عندنا في الفوازير . وكل هذه ضروب من
العدوان الصريح على منطقنا ، وهذا هو سر ما تحمل من فكاكة ، إذ
تسقط العبارات والأفكار في غير موضعها ، وكأنها تسقط من
شواهد على نحو ما نجد في قوله :

إذا ما الفتى في الناس بالعقل قد سَمَا
تَيَقَّنْ أَنَّ الْأَرْضَ مِنْ فَوْقَهَا السَّمَاءَ
وَأَنَّ السَّمَاءَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَرْضُ لَمْ تَزَلْ
وَبَيْنَهُمَا أَشْيَاءٌ إِنْ ظَهَرَتْ تُرَى

وَكَمْ عَجَبٌ عِنْدِي بِمَصْرِ وَغَيْرِهَا
فَمَصْرُهَا نَيْلٌ عَلَى الطَّيْنِ قَدْ جَرَى
وَفِي نَيْلِهَا مِنْ نَامٍ بِاللَّيْلِ بَلَّهْ
وَلَيْسَتْ تَبْلُ الشَّمْسُ مِنْ نَامٍ فِي الضُّحَى

بِهَا الْفَجْرُ قَبْلَ الشَّمْسِ يَظْهَرُ دَائِمًا
بِهَا الظُّهْرُ قَبْلَ الْعَصْرِ قِيلَ بَلَا مِرَا

وَفِي الشَّامِ أَقْوَامٌ إِذَا مَا رَأَيْتَهُمْ
تَرَى ظَهَرَ كُلُّ مَنْهُمْ وَهُوَ مِنْ وَرَا

بِهَا الْبَدْرُ حَالَ الْغَيْمِ يَخْفَى ضِيَاؤُهُ
بِهَا الشَّمْسُ حَالَ الصُّحُورِ يَدُو هَا ضِيَا

وَتَسْخَنُ فِيهَا النَّارُ فِي الصَّيْفِ دَائِمًا
وَيَبْرَدُ فِيهَا الْمَاءُ فِي زَمَنِ الشِّتَا

وفي الصَّينِ صينيٌّ إذا ما طرَّقته
 يطنُّ كصينيٍّ طرقت سَوَا سَوَا
 بها يضحك الإنسان أوقات فرجه
 ويكي زمان الحزن فيها إذا ابتلى
 ومن قد رأى في الهند شيئاً بعينه
 فذاك له في الهند بالعين قد رأى
 وفيها رجالٌ هم خلاف نسايتهم
 لأنهم تبدو بأوجههم لحي
 ومن قد مشى وسط النهار بطرقها
 تراه بها وسط النهار وقد مشى
 وعشاق إقليم الصَّعيد به رأوا
 ثماراً كأثمار العراق لها نوى
 به باسقات النخل وهي حوامل
 بأثمارها قالوا: يحركها الهوى
 وما علَّمتني ذاك أمي ولا أبي
 ولا امرأة قد زوجاني ولا حما
 وأنت ترى ابن سودون في هذا الهزل كله يعتمد على فن
 المفارقة، فهو يبدأ حديثه بأن الإنسان إذا سما عقله استطاع أن
 يصل إلى هذه المعارف الدقيقة، من مثل أن الأرض من فوقها
 السماء وأن السماء من تحتها الأرض وأن بين السماء والأرض أشياء

نشاهدها. وينتقل ابن سودون من هذه المقدمة إلى بيان الغرائب التي شاهدها في البلدان المختلفة، وهو يبدأ بمصر فيروى لك أن الفجر فيها يظهر قبل الشمس وأن الظهر يتقدم العصر، ويؤكد لك ذلك كأنه شيء مشكوك فيه، فيقول لك بل هو حقيقة بلا مرأى. ويتحول بسامعه إلى عجائب الشام، فيذكر أن بها أناسا ظهر كل منهم وراءه، كأن الناس في العالم على قسمين: قسم في الشام إذا رأيته عجبت منه، وهو لذلك يعرفنا به وبوجه العجب فيه، أما القسم الآخر الذى يقابل هذا القسم، فقد سكت عنه لأنك تعرفه حق المعرفة، فهو شائع ومفهوم، وهو إنما يقص لك المجهول الذى لا تعرفه. هذه قصة الناس هناك، أما بدرهم فان ضيائه يستتر حال الغيم وانتشار السحاب، وأما شمسهم فان ضيائها ينتشر حال الصحو. وهناك تسخن النار في الصيف ويبرد الماء في الشتاء. كأن ذلك كله من عجائب الشام. ويترك الشام إلى الصين فإذا هو يحدثنا أن بها «صينيا» يطن مثل ماذا؟ مثل صيني طرقت سواء سواء. هل جاء ابن سودون بشيء؟ ويستمر في هزله، فيقول ان الناس في الصين يضحكون في أوقات فرحهم ويبكون في أوقات حزنهم. وينتقل إلى الهند فيحدثنا أن من رأى هناك شيئا بعينه فقد رآه بعينه، وهو لم يصنع هنا شيئا أكثر من أنه أعاد علينا في الشطر الثانى من بيته ما قاله بعينه في الشطر الأول. وأخذ يعرفنا أن الرجال هناك يختلفون عن النساء اختلافا بينا، لما لهم من لحي

يرسلونها وكأن اللحي خاصة من خواص رجال الهند وحدهم دون سواهم من العالمين . ويقول أن من يمشى هناك وسط النهار تراه وسط النهار وقد مشى !

ويعود بنا إلى مصر ، فيتكلم عن إقليم الصعيد وما شاهده فيه من عجائب الزمان ، ويقول إن به ثمارا كأثمار أهل العراق لها نوى . أرايت إلى هذا التنظير أو قل هذا القياس الدقيق . ولكنها معلومات ابن سودون ، معلومات قد تعب في تحصيلها ، وقد تعلمها باجتهاده ورحلاته في أقطار الأرض ، وما تعلمها من أبيه ولا أمه ولا من زوجه وحماته ، وإنما تعلمها من مشاهداته ورحلاته وفطنته وذكائه .

وعلى هذا النحو يعتمد ابن سودون دائما في فكاهته على الهزل والهذر وسرد البدهيات على شاكلة أدعياء المعرفة سردا يُلغى فيه المنطق المستقيم إلغاء ، وينتكس كل ما تؤمن به من ميزة التفكير السليم انتكاسا ، وهو انتكاس لا نلم به حتى يفضى بنا إلى الضحك والإمعان فيه .

وحقا أن ابن سودون كان « جحا » مصر في عصره ، ولم يكن يعتمد في جحويته على النوادر والنكت كما كان يعتمد جحا ، بل كان يعتمد على هذا الفن من الهزل ، وما يطوى فيه من مفارقات ومتناقضات يدفعك بها دفعا إلى الضحك ، وكأنك تستمع إلى مهرج

من مهرجی التمثیل الهزلی ، لایزال یطرفک بغبائه ، وبما یأتی من
مخالفات صریحۃ لمنطق الواقع . وكان ما یزال یحتال بهذه المخالفات
على كل موقف مهما بلغ من جد ، ومن خیر ما یصور ذلك قوله فی
رثاء أمه :

لموت أمی أرى الأحزان تُحْنِنِی
فطالما لحسْتنی لحسَ تحْنِینِ
وطالما دلَّعْتنی حالَ تربیتی
خوفا على خاطری کی لا تبْکِی
أقول « مَمَّ مَمَّ » تجی بالأکل تطعنی
أقول « أمیو » تجی بالماء تسقینی
إن صحت فی لیلۃٍ « وأُ وأُ » لأسهرها
تقول « هُو هُو » بهز کی تننِی
کم کحلَّتْنی ولی فی جبهتی جعلتُ
« صوصو بنیلی » وکم کانت تحْنِی
وربما شْکَشْکْتنی حین أغضبها
وبعد ذا کَشْکَشْتنی کی تُرْضِی
ومن فقیهَی إن أهرُبْ ورام أبی
مسکی وبعثی له کانت تحْنِی
وزغرطتُ فی طهوری فرحۃً وغدتُ
تنزُّ الملح من فوقی وترْقِی

وفى زواجى تصدّت للجلاء عسى
على المنصّة تلقانى بتزيين

وربت أولادا ايضا مثل تربيتى
وبعد ذلك ماتت آه وانينى

وخلفتنى يتيما ابن أربعة
وأربعين سنيناً فى حسابينى

يعظمُ الله فيها الأجرَ لى وكذا
لى فى من بعدها جودوا بآمين

وما من شك فى أن كل من يستمع إلى هذا الرثاء يغرق فى الضحك لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدى فى مثل هذا الظرف اعتداء صارخا ، وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى نجد فيه شخصا يقف بإزاء أمه - وقد لبث نداء ربه - ليرثيها ، ومن الواجب أن تكون كل كلمة فى رثائه تعبر عن دمة تنحدر من عينه ، فإذا هو يترك ذلك وما يتصل به من حشمة ووقار إلى مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله ، وهو مظهر لا يتصل بالحزن ولا بالرثاء ، وإنما يتصل بالدعابة والهزل ، وكأنما يتحدث إلى أمه فى أحد أعياد ميلادها ، وهى قائمة بين يديه تستمع إلى هزله ، فتضحك وقد تسترسل فى الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعاً وأربعين سنة يحدثها عن ذكرياتها القديمة .

وهذه المخالفة في الموقف وما تنطوى عليه من مفارقة هي أساس فكاهة ابن سودون في هذه المقطوعة ، وارجع إلى مطلعها فإنك تراه في الشطر الأول منها يكاد ينهد من حزنه انهدادا ، فقد قوسه الحادث وحناءه ، ولكنك لا تقرأ الشطر الثاني حتى تجد المفارقة ، فإذا هو يذكر كيف كانت أمه في رضاعته « تلحسه لحس تحنين » كما يذكر كيف كانت تدله خوفا على خاطره . ونستمر ، فإذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكرة أنه كان حين يقول « مم مم » تأتي له بالأكل وحين كان يقول « أمبو » تأتي له بالماء . رأيت صرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون ؟ انه لا يملى عليه إلا هذه الفكاهة وما يطوى فيها من ضحك في موطن الرثاء وما يطوى فيه من حزن .

ولا يكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعتمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقتزن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن « هو ، هو » ، ونحو ذلك حتى يناموا . ثم يسترسل في الحديث عن حنو أمه عليه ، وكيف كانت تكحله وكيف كانت « تحنيه » ثم كيف كانت « تشكشكه » بإبرة ونحوها وكيف كانت « تكشكشه » وتُدُلُّه بهز وغير هز .

ويقص علينا كيف كانت تحببه حين يهرب من فقيه الكتاب وأنها زغرطت يوم ختانه ، وزينته يوم زواجه . وأخيرا يعلن أنها خلفته يتيا ابن أربع وأربعين سنة كما يقول . وكل هذه مفارقات تنتهى بنا إلى الضحك ولكن في أى موقف ؟ في الرثاء أو بعبارة أخرى في أكثر

المواقف دعوة إلى الحزن وأشدّها استتارة للبكاء . وهو بذلك يجرح شعورنا لما اصطَلَحنا عليه في مثل هذا الموقف لكنه جرح ينتهى بنا إلى أن نضحك ، بل إلى أن نسرف في الضحك ، لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار ، وهو يغلو في ذلك غلو البله . وهذا هو وجه طرافته وجمال فكاهته التي تعتمد دائماً على المباينات بين ما تنتظره من مقدماته وما يستقبلك به من أشعاره . ومن أطرف ما جاء من ذلك وصفه لحفل زواجه ، إذ يقول :

حلُّ السرور بهذا العقد مبتدرا
ونجمٌ طالعه بالسَّعد قد ظهرا
و « الفلُّ » كَلَّلَ وَجْهَ الأرض فانعطفتُ
أغصانه بالتهاني تَنثر الزهرا
والطيرُ من فَرَحها في دَوَّحها صدحتُ
بكل عودٍ عليه لا ترى وتَرا
تقول في صَدْحها : دام الهنا أبدا
على العرائس كي يقضوا به الوطرا
وكنت عند زفافي قد وصلتُ إلى
حدِّ الأشدِّ ، وعقلي في الورى اشتها
فكنت أعرف من عقلي وكثرته
أني إذا نمت معَ ظهري يكون ورا

هذا وعقلُ عروسی كان أصغرَ من
 عقلی ولكن حوتُ فی عمرها کبراً
 فی السنَّ قد طَعَنْتُ ، ماضراً لو طَعَنْتُ
 بالسنَّ من رمحٍ أو سيفٍ إذا بَتَرَا
 فی وجهها غشٌّ فی أذنها طَرَشٌ
 فی عینها عَمَشٌ للجفن قد سَترا
 فی بطنها بَعَجٌ فی رجلها عَرَجٌ
 فی کفِّها فَلَجٌ ، ما ضَرَّ لو کُسِرا
 فی ظهرها حَدَبٌ فی قلبها کدر
 فی عمرها نُوبٌ کم قد رأت عِبرا
 یا حُسْنُ قامتها العوجا إذا خَطَرْتُ
 یوما وقد سَبَسَبْتُ فی جِیدها شعرا
 تَظَلُّ تَهْتَفُ بی : حُسْنَا حَظِیْتُ بها
 أوَاهُ لو حاسها موتُها قَبَرَا
 وأنت تراه یعمد فی هذه القطعة إلى المفارقة حتی یتخرج
 ما یرید من هزل وفکاهة . فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما
 کان من مشاركة الطبيعة والطیر للعروسین فی فرحها . وما نستمر
 حتی نراه یعمد إلى التباله ، بل إنه لیعلنه اعلانا ، فعقله علی کثرته
 لم یکن یعرف به إلا أنه إذا نام کان ظهره إلى ورائه . ومع ذلك
 فعقله أكمل من عقل زوجته .

وذهب بعد ذلك يعرض علينا زوجه في صورة مشوهة لاتنسجم مع مطلع شعره . وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يعمد إلى ضروب من المباينات المنطقية في هزله ، فبينما هو في مستهل القطعة يملأ الجو بشرا وابتساما لهذا الزواج السعيد . إذا هو يملأه بعد ذلك كآبة وغيا واكفهرارا ، لما صدم شعورنا به من وصفه لهذه الزوج القبيحة التي جمعت فنون القبح كلها . وهو يعمد إلى المبالغة في هذه الفنون ، حتى يستتم ما يريد من إضحاك . ونراه يقف ليعجب بقامتها على ما فيها من عوج ويذكر عيوبها من نمش وطرش وغمش وبعج وعرج وفلج (تباعد ما بين الأصابع) وحذب . والمفارقة واضحة في القطعة ، وابن سودون يدمج في هذه المفارقة وما يطوى فيها من تباين ضروبا من التباله واطهار الغفلة على نحو ما نجد في قوله :

البحر بحرٌ والنخيل نخيلُ
والفيل فيلٌ والزراف طويلُ
والأرض أرضٌ والسماُ خلفها
والطيرُ فيما بينهن يجولُ

وإذا تعاصفت الرياحُ بروضةٍ
فالأرض تثبتُ والغصون تميلُ
والماء يشي فوق رملٍ قاعدٍ
ويُرى له مها مشى سَيلولُ

وهو لا يأتي بشيء غريب ومع ذلك فإن شيئاً من الابتسام يلم بنا ، لأن ابن سودون جمع لنا في هذه القطعة أقرب الأشياء من حسنا ، وذهب يرويه في هذا الضرب من البله والسذاجة ، وهى سذاجة هيأته لأن يصف كل مايتصل به ، حتى لغة الأطفال كما مر بنا ، وعلى شاكلة مانجد في قوله :

ولما أن كبرتُ بحمدِ ربى
وصارَ لمنتهى عقلى ابتداءُ
بقيت أقول : نَوْتُ و ثاتِه
ودحو كُخْ وأمبو مَم آه

فقد حشد في البيت الثانى طائفة من لغة الأطفال ، وله في هذا الباب طرف كثيرة . وقد حكى في ديوانه ضروبا من أصوات الحيوان ، إذ نراه يقلد صوت الديكة والحملان والثيران ، ومن هزلياته قوله في كتكوت :

شِرَيْتُ لى كُتَيْكَيْتُ	فُيمو بِزِيق
عَرَبَيْنِ يَصِيح	من البَرْد : زِيق
لو حُلَيْق فيه زماره	وَحْنِيكَ فيه نَقَّاره
يَزْمَرُ ، يَنْقَرُ	ضَوِيحَكَ رَشِيق
أقول لو كتكت	يكتكت ، يَجى

يرفرف يزقزق لحسو زعيق
لوجناح لاح من جنبو كلما أنشرح لولح بو
غليظ البطينه ولو ساق رقيق

وهى قطعة خفيفة توضح مقدرة ابن سودون على جمع الصفات
والخصال لكل ما يصفه ويعالجه . وقد تعلق بجانب ذلك بوصف
الأطعمة والتحدث عنها تحدثا يشوبه الجشع ، بل تشوبه
« الفجعة » . وله بعد ذلك مواليات أو قطع من فن المواليا الذى
كان شائعا فى العصور الوسطى ، ومن أمثلتها قوله :

الثور والبقر اذى العام وما قبله
فى مصر والشام وف غرّه مع الرّمله
هديق تحبل وتولد عجل أو عجله
وذاك فى الساقيا يأكل بفرقله

حكايات وطرف

وقد ساق ابن سودون فى ديوانه مجموعة من الحكايات والطرف
النثرية ، وهى لا تقل غرابة ولا إضحاكا عما رويناه من شعره ، بل
لعلها تتفوق فى كثير من جوانبها على هذا الشعر الفكه الخفيف .
ولهذه الحكايات والطرف فى الديوان بابان ، أما أولهما فباب
الحكايات الملافيق ، وأما الثانى فباب التحف العجيبة والطرف

الفريية . والبابان جميعا كتبنا باللغة الشعبية الدارجة ، وهو يستمد فيها من التباله وإظهار الغفلة والمفارقة المنطقية على نحو ما رأينا في شعره . فما نلبث حين نقرأها أن نضحك ، إذ كان يحسن كيف يتغابى ، وهو غباء ينتهى بنا إلى إهمال عقولنا فنضحك لا سخرية ولا استخفافا ، ولا كما يقول بعض الفلاسفة لأنه خالف منطقنا ، وتحول إلى ما يشبه آلة جامدة ، بل لعلنا نضحك لأننا نريد أن نكافئه ، إذ استطاع أن يخرجنا قليلا من عالمنا . ومن منا يذهب إلى ممثل هزلى ليعاقبه بضحكه على شذوذه ، إننا نذهب لنسر ونتمتع حقبة من الزمن بالانتقال من عالمنا إلى عالمه الذى تنعدم فيه قيمنا المنطقية ، وتحل فيه قيم أخرى تقوم على التباين والشذوذ ودفع الأفكار من أعلى الشواهد وقد انتكست وتشوشت واضطربت على نحو ما نرى فى هذه النادرة .

قال الزلايىانى : « كنت - وأنا صغير - بليدا لا أصيب فى مقال ، ولا أفهم مايقال ، فلما نزل فى المشيب زوجتى أُمى بامرأة كانت أبعد منى ذهنا إلا إنها أكبر منى سنا . وما مضت مدة طويلة حتى ولدت ، والتمست منى طعاما حارا . فتناولت الصحيفة مكشوفة ، ورجعت إلى المنزل آخذ المكبة (غطاء الصحيفة) فنسيت الصحيفة . فلما كنت فى السوق تذكرت ذلك فرجعت وأخذت الصحيفة ونسيت المكبة . وصرت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى ، ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس . فقلت : لا أشتري

لها في هذه الليلة شيئا ، وأدعها تموت جوعا . ثم رجعت إليها ، وإذا
 هي تتنّ ، وإذا ولدها يستغيث جوعا . فتفكرت كيف أربيّه ،
 وتحيرت في ذلك . ثم خطر ببالي أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب
 زوجها والتقط الحب ، ثم يأتي ويقذفه في فم ابنه ، وتكون حياته
 بذلك ، فقلت : لا والله لا أكون أعجز من الحمام ، ولا أدع ولدى
 يذوق كأس الحمام . ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز ، فجعلته في
 فمي ، ونفخته في فمه فرادى وأزواجا ، أفواجا أفواجا ، حتى امتلأ
 جوفه وصار فمه لايسع شيئا ، وصار الجوز واللوز يتناثران من
 أشداده . فسررت بذلك وقلت : لعله قد استراح . ثم نظرت إليه ،
 وإذا به هو قد مات ، فحسدته على ذلك ، وقلت : يا بني ! إنه قد
 انحط سعد أمك ، وسعدك قد ارتفع ، لأنها ماتت جوعا وأنت مت
 من الشبع ، وتركتها ميتتين . ومضيت آتيهما بالكفن والحنوط . ولما
 رجعت لم أعرف طريق المنزل ، وها أنا في طلبه إلى يومنا هذا .
 رأيته كيف يستخرج منا ابن سودون الضحك بفكاهته ، وما
 يتقن وصفه من بلاهة الزلاياني وغفلته . وانظر إليه كيف جعله
 ينسى المكبة ويأخذ الصحيفة ، ثم مازال بعد ذلك كلما أخذ واحدة
 منها نسي الأخرى في تباله يدفعنا إلى الضحك . ونحن نضحك
 لا لأننا نحترق ابن سودون أو نزرى عليه ، ولا لأننا نحس برغبة
 في الانتقام منه كما يقول بعض الفلاسفة ، بل لعلنا نضحك لأننا
 نحس إزاءه بعطف ، بل بشيء من المودة ، فإننا نتمنى أن لو كان

معنا الآن لنرى كيف يستغل مسرحنا في هزله وفكاهاته . وانظر إلى ما يخلعه على الزلاياني من غفلة ، إذ جعله يطعم طفله الجوز واللوز ، حتى قضى عليه كما قضى على أمه . ويذهب لإحضار كفتين لهما ، وسرعان ما ينسى البيت ، وتخونه ذاكرته ، فيفقد كل دليل يدل عليه .

والحق أننا نضحك لا لأننا نريد أن نعاقب ابن سودون ولا لأننا نريد أن نكافئه ، ولكن لأن مثل هذا الكلام يصيبنا بضرب من عدم الاتزان ، فنشعر بسرور ، فنضحك . وليس كل فقدان للاتزان يفضى إلى ضحك ، فإننا نألم أيضا حين تصادفنا حادثة محزنة ، لنفس السبب ، إذ نفقد اتزاننا . وإذن ففقدان الاتزان يؤدي إما إلى ضحك وإما إلى بكاء ومصدر هذا التناقض أننا حين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانقباض النفسى نألم ونحزن ، وحين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانبساط النفسى نسر ونفرح وقد نضحك . ومعنى ذلك أن الضحك مسألة فردية تخضع لشعور الفرد نفسه بضرب من الراحة ، لامسألة اجتماعية تخضع للمجتمع وأنه يريد أن ينزل عقابا أو ثوابا بالأشخاص الفكهين .

ونحن لا نريد أن نفسد فكاهة ابن سودون بالاسترسال في مثل هذا الحديث الجاف ، فلنرجع إليه وإلى هزلياته ، ولنترك الفلاسفة وعلماء النفس وفلاسفة الضحك كما يريدون ، والذي لا ريب فيه أن ابن سودون كان جعبة فكاهة فأينما قلبت طرفك في ديوانه اندفعت

تضحك ، وقد تضحك ضحكا عاليا . وقرأ هذا الخطاب الذى كتبه على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة وهو يمضى على هذه الصورة ، يقول :

« أرسل فنين بن أبى المدارس إلى أهله كتابا من الصعيد ، يقول فى عنوانه : « يصل إن شاء الله تعالى إلى دربنا المحروس الذى ضَبُّطو سَنَط ولقية ، ويسلم ليد البيت ، مطالعة الوالد » ، وفى داخله :

« السلام عليكم عدد ما فى نخيل البلد من أوراق ، وعدد أمواج البحر ان تكدر أوراق ، سلام كثير لايسعه طبق ولا طبقين ولا أطباق ، أطول من مقود زرافة ، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاثة أطواق . من كل بد وسبب ، والذى أعرفكم به إن كنتو « لسع » بالحياة أنى أرسلت لكم صحبة القاصد على ، جوز وِرْ فقس الصيف ، من ديك الوزة ، وأيضا خروف أبلق وخروف بلا بلاق . ويا سبحان الله تبقوا تتكلموا جزاف . أرسلتم تطلبوا حبل تنشروا عليه الغسيل ، وقتلوا لنا على طوله ، وما قتلوا على عرضه ! وأرسلتم تطلبوا « كَشْكَ » وأنا إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة ، وإن طبخته مايوصل لكم حتى يبرد : وطلبوا قُلا ، والفلاحين مازرعوا إلا قرع طويل ، فيكون ذلك فى خاطرهم . من حقه ، بلغنى أن امرأتى حبله ، فلا تخلوها تولد ، حتى أجى ، وإن ولدت قبل ذلك لا يكون إلا صبى ، وجرت لى حكاية ، وذلك أنى

غسلت قميصى ونشرته فى السطوح ، فقام بالأمر المقدور ضربه
الهوا ، فوق من فوق لتحت ، وارتجفت بسلامتى رجفة ، وعرفت
أن ما هى بشارة خير ، وأنها تدل على موت أمى وأبويه ، والحمد لله
كانوا فدايه . وإنى صليت وصمت لله تعالى الى ما كنت فى
قميصى ، ولو كنت فيه كنت انكسرت ، فقلت : لا حوالينا
ولا علينا ! ولكن من الرجفة وجعتنى عينى الى تبقى ناحية المشد ،
(ملتزم القرية المالى) وقت أخرج من دارنا . والذى نعلم به
الوالد زوج الوالدة أنى دخلت يوم البستان أنا والختولى ، فرأيت
فيه نخل ، شى طويل ، وشى قصير ، وشى مايشبه شى ، فقلت
له : دى ايه ؟ قال : بلح ، قلت : ودى ؟ قال : نبق ، قلت ودى :
قال حميز ، قلت : ودى ؟ قال مشمش ، قلت ودى ؟ قال : توت ،
ورأيت يابويه نخلة فيها كل ورقة قدر الصفحة ، فقلت له ودى
إيه ؟ فقال لى : موز ، فعجبنى قوى ، وقلت له : الموز يطلع فى
البستان ؟ فقال لى : أيوه فقلت له : والجبن المقلى يطلع فى ؟
قال : يطلع فى طاجن الجبان ، وأنت تعرف أن بيتنا على دكان
الجبان ، وأنا كل يوم آجى وأطل من الطاقة ، وعمرى ما رأيت فى
الدكان نخيل جبن مقلى . وكابرت الخولى وراهننتو من دجاجتى
الرقادة لنعجتو الحيلة . فالوالد يبصر لنا إن كان الخولى غلبنى .
والذى أعرفكم به كمان أنى لما طلعت البلد ، ولقيت الصابون غالى
بعت فرسى البيضة ، واشتريت لى حمارة سودة ، حتى لاتتوسخ

وبس كلام ، فإني لو كتبت الذى فى خاطرى كله كان الكتاب يجرى من هون لفين . بعد السلام على أهل الحارة ، كل واحد وحده ، كثير كثير ، بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراوىح من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى الأوسط سنة تاريخه ، وبالأمانة مطرت المطرة ، وأهل البلد كلهم يعرفوا إن شاء الله .
وواضح أن ابن سودون كتب هذا الخطاب باللغة الدارجة لعصره ، وهى لا تختلف عن لغتنا الحاضرة وقد جاء فيه بلازمة لأهل الصعيد اذ أبدل الهاء فى كلمة « لسه » عينا فقال « لسع » ونجد فيه أيضا بعض لوازم أهل الشام ككلمة « من هون » وكأنا كان المصريون فى عصر ابن سودون يضحكون من بعض اللوازم فى لهجة إخواننا أهل الشام .

وقد بنى الخطاب على التباله والغفلة منذ العنوان ، ونحن لانمضى فى قراءته حتى نراه يستشكل ، أو بعبارة أدق نرى فنين يستشكل على أبيه اذ أرسل يطلب منه حبل غسيل ولم يذكر له عرضه ، وكذلك أرسل فى طلب « الكشك » ولم يذكر هل يرسله مطبوخا أو غير مطبوخ ، وسأله بعض قتل والفلاحون لا يزرعون القلل وإنما يزرعون القرع .

وهى كلها استشكالات تفسر عقل فنين ومايسمه من غفلة ، ويمضى على هذا المنوال ، فيحمد الله أن وقع ثوبه من فوق بعض السطوح ولم يكن فيه ، ويتخذ من ذلك دليلا على موت أبيه وأمه ،

ويقول إن عينه رمدت ويريد أن يقول أنها اليمنى أو اليسرى ، فلا يسعفه بلهه ، فيقول إنها العين التي تكون ناحية المشد حين خروجه من بيته ، ثم يقص أنه دخل بستانا ورأى فيه أشجارا من أنواع شتى ، وذهل حين رأى شجرة الموز ، وسأل الخولى أين يطلع الجبن المقل ؟ كأنه تصور الجبن المقل فأكهة مثل الموز وتندر عليه الخولى فقال له : « يطلع في دكان الجبان » . وذهب فنين يطل على الدكان ليرى شجرة الجبن ، فلم يجد شيئا فذهب يراهنه « من دجاجته لنعجته » . ويستمر ابن سودون ، فإذا صاحبه يذهب إلى السوق ، فيجد الصابون مرتفعا سعره ، فتسول له بلاهته أن يبيع فرسه البيضاء ويشتري مكانها أتاناً سوداء حتى لاتسخ . ثم يؤرخ خطابه هذا التاريخ المشوش .

وعلى نحو ما كان يداعب ابن سودون أبناء الصعيد على لسان فنين نراه يداعب بعض أصحابه من شيوخ عصره ممن كانوا يطيلون في المناقشات اللفظية وما يتصل بها من بيان لما تفترق فيه الأشياء وتجتمع . ونذكر مثالا لذلك حديثه عن الفرق بين المركب والفرس يقول .

« إن من عرف العلم بتحقيقه ، وانعجنت فكرته بدقيقه ، علم أن بين المركب والفرس فروق من كم وش (وجه) الفرق الأول : أن المركب أثقل من الفرس ، بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ، ولو حملوا المركب على فرس ما تقدر

تحميلها . الفرق الثاني : أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت رأسها عند رأس المركب لا يصل ذنبها إلى ذنب المركب ، وأيضاً فإن المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وإيش ماخطر له بخلاف الفرس ، وأيضاً فإن المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر وظهر الفرس ما هي كده ، وأيضاً فلفظ فرس ف ر س ولفظ مركب م ز ك ب فمركب أزيد بحرف والزائد أكبر من الناقص . الفرق الثالث : أن الفرس لها سمع وبصر ، تسمع من صاحبها إيش ما قاله لها وتبصر كيف تحط رجلها ، والمركب ما هي كده . الفرق الرابع : أن الفرس لها أربع قوائم تتدار بهم إن خطر لها من هون هون ، والمراكب ما هي كده . ولا يرد على هذا الصندوق والسريز بأن لكل واحد أربع قوائم ولايندار ، لأن الكلام فيما يركب والسريز وإن كان يركب إلا أنه لا يركب للسفر ، والكلام فيما يركب للسفر . الفرق الخامس : أن بطن المركب مغرقة في الميه وبطن الفرس مسيبة ، إلى غير ذلك من الأفراق » .

واستمع إليه ، وقد استفتاه بعضهم في الدجاجة هل هي من البيضة أو العكس ، فأفتاه على هذا النحو :

« لا نَقْلُ عندي في هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر أن الدجاجة كانت أولاً ، ثم باضت ، وحصل التناسل ، ومما يؤيده الحدوته المشهورة ، وهي : أحدثك حدوته ، بالزيت ملتوته ، كان

ما كان ، في قديم الزمان ، أولاد حمدان ، يطلبوا نانا ، والنانا في التنور ، والتنور يريد له حطب ، والحطب في الجبل ، والجبل يريد لو فاس ، والفاس عند الحداد ، والحداد يريد له بيضة ، والبيضة في الدجاجة ، والدجاجة تريد لها لقط ، واللقط في الحظيرة ، والحظيرة تريد لها مفتاح ، والمفتاح عند رباح ، مايجي من الساعة لشق الصباح . فقال : « والبيضة في الدجاجة ، ولم يقل الدجاجة في البيضة ، ولا يختص هذا بالدجاجة ، بل الوزه كذلك أيضا » .

وواضح أنه يستخدم مصطلحات بعض الشيوخ لعصره في إجاباتهم من مثل : « لانقل عندي في هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر ، ولا يختص ، وقال ولم يقل » وذكر الاصطلاح المعروف في لغتنا الدارجة : « أحدثك حدوده بالزيت ملتوته » ، وقال : « كان ما كان في قديم الزمان » أما الحكاية نفسها فلها أمثلة قصيرة تدور في قصصنا العامى .

وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون في عصره ، كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه : الريفين وغير الريفين من الصعيد وغير الصعيد . والحق أنه كان فكها مبدعا ، وكان يعتمد في فكاهاته دائما على المفارقات المنطقية وما يطوى فيها من غفلة وبله . ولم يكن يحتال لذلك بأشياء خيالية ، بل كان يعتمد إلى واقع حياته ومجتمعه فيتخذ ما يريد من هزله ، إذ

كان يعرف كيف ينقل أقرب الأشياء والموضوعات منه إلى أدوار
هزلية مضحكة ، وهى أدوار يضطرب إزاءها توازننا ، ونشعر كأننا
قد خرجنا من عالمنا إلى عالم آخر ، هو عالم ابن سودون ، وهو عالم
تعرض فيه الأفكار عرضا مضحكا على نحو ما نجد عند ممثلى
عصرنا الهزليين فى أدوارهم الفكهة المضحكة .

فِي الْعَصْرِ الْغُثَامِيَّ

هزل في عصر الظلام

بالرغم من أن مصر أصبحت في هذا العصر ولاية عثمانية، وأن الظلام خيمَ عليها في كل شيء، فساءت أحوالها الاقتصادية والعلمية والأدبية، بالرغم من ذلك تظل لها طوابعها الفكاهية وقد تلمع فيها السخرية السياسية من حين إلى حين، فالجبرتي يروى أن أهل القاهرة غضبوا على وال عثمانى، فتنجموا تحت قصره ينادون عليه معلنين غضبهم على بعض تصرفاته:

باشا يا باشا يا عين القمله	من قال لك تعمل دى العمله
باشا يا باشا يا عين الصيره	من قال لك تدبر دى التدبيره

وتجربى الفكاهة في حياتهم رغم ما يجللها من يؤس وشقاء، بل

إنهم يحولون البؤس والحرمان والجوع إلى فكاهة وهزل في الأطعمة
وألوانها ولبعضهم :

قالوا تحب المدمس قلت بالزيت حار
والعيش الأبيض تحبه قلت والكشكار

وهناك شخص يسمى عامر الأنبوطي ، كان فكها ، ويروى عنه :
أنه كان كلما سمع لشخص قصيدة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل
وضروب الأطعمة المختلفة ، وكان علماء الأزهر يكرمونه ، خوفا من
لسانه ، وأن يقلب أشعارهم صنوفا من الطعام . وبلغ من إتقانه لهذا
الصنيع أنه نظم ألفية (ألف بيت) على غرار ألفية ابن مالك
المشهورة في النحو ، ومن قوله فيها :

طعامنا الضاني لذيذٌ للنَّهْمِ لحما وسَمْنَا ثم خُبْرًا فَالتَقِمَ
ومنها :

والأصلُ في الأخباز أن تقمرا وجوزوا التقديد إذ لا ضررا
وامنعه حين يستوى الخرفان

وهو في هذا ومثله يستخدم نفس ألفاظ ابن مالك ، ويحولها من
النحو إلى الطعام ، ولا ريب في أن ذلك كان يضحك الناس ،
وخاصة من أكبوا على حفظ ألفية ابن مالك ، إذ تفجأهم هذه
الألعاب الهزلية بما يحفظون من صيغ ابن مالك وعباراته . ومن كلامه

على وزن لامية مشهورة في الأدب العربي، تسمى لامية العجم،
وكان العجم يفتخرون بها في مقابل لامية أخرى تسمى لامية
العرب، يقول معارضا لها:

طال التلهُّف للمطعموم واشتعلتْ
حُشاشتي بحمام البيت حين قُلِي
أريد أكلا نفيسا أستعين به
على العبادات والمطلوبِ من عملي
والدهرُ يفجع قلبي من مطاعمه
بالبدس والكشك والبِيصار والبَصَلِ
ناديت هيا ولا تُبْطِي بِغَرْفِكَ لِي
فإنه خُلِقَ الإنسان من عَجَلٍ
وهذا كله هزل ودعابة، ودليل على أن المصريين لم ينسوا حتى في
عصور الظلام ما طُبِعوا عليه من التندر والفكاهة.

هز القحوف:

هو كتاب طريف أُلِفَّ في هذا العصر لغرض تصوير أهل ريف
مصر وبيان ما هم عليه من فقر وبؤس وجهل ألفه شخص يسمى
يوسف الشريبي، وكان عالما واعظا، ونظر من حوله، فرأى
السواد الذي كان يغطي أودية مصر في ذلك العصر، ورأى معه

تعاسة أهل الريف، فنظم قصيدة سماها قصيدة أبي شادوف يصور فيها الشقاء المحيط بهم. والشادوف آلة معروفة يُسَقَى بها الزرع، وقد يسمى أهل الريف المصرى شخصا باسم أبي شادوف لغرض الضحك عليه والسخرية منه. ومن ثم سمي يوسف الشربيني قصيدته باسم قصيدة أبي شادوف، وهى قصيدة من بحر الطويل، ولكن لا تظن أنها ألّفت باللغة العربية، فهى عامية خالصة، وقد وصف فيها حياة رجل الريف فى عصره بجميع صورها وألوانها من أكله إلى عمله فى حقله، إلى صلته بالحكومة فى عهده، وهو يسوق ذلك فى فنون طريفة من السخرية والهزل.

ولم يكتف يوسف الشربيني فى وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه فى شرح القصائد الجديدة، وهو شرح طويل اختار له هذا الاسم الغريب «هز القحوف». وهو يتقدم هذا الشرح بقوله:

«ان مما مرَّ علىَّ من نظم شعر الأرياف، الموصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف، قصيد أبي شادوف، فوجدته قصيدا ياله من قصيد، كأنه عمل من حديد، أو رُصَّ من قحوف الجريد، فالتمس منى من لا تسعنى مخالفته، ولا يمكننى إلا طاعته، أن أضع عليه شرحا يحل ألفاظه السخيمة، ويبين معانيه الذميمة، وأن أتخفه بشرح لغات الأرياف، وذكر فقهاهم الجهال وفقرائهم الأجلاف! وياله من

شرح لو وُضع على الجبل لتدكدك، ولو نُقش على عمود الصواري لتحرك. وقد سميت هذا الشرح «هز القحوف بشرح قصيد أبي شادوف» وأُطلب من القرينة الفاسدة، والفكرة الكاسدة، الإعانة على كلام أعرفه من بنات الأفكار يحاكي كلام ابن سودون، فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة، لأن النفوس الآن متشوقة إلى شيء يسليها عن الهموم، ويزيل عنها وارد الغموم».

وليست هذه الهموم والغموم التي يشير إليها الشريبي إلا ما كان يصبه العثمانيون وأحلافهم من الممالك على رؤوس المصريين من أسواط العذاب. ودائما نجد مصر حين يجثم على أنفاسها كابوس دولة أجنبية تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على غط ما يصنع الآن يوسف الشريبي. وهو لا يتخذ من شخصية بعض العثمانيين أو الممالك ما يريد من هزل وسخرية، فقد كان الحكم العثماني قاسيا، وكان الناس لا يستطيعون أن يعرضوا فيه لحاكم بالتشهير فضلا عن الفكاهة والتندير. ومن أجل ذلك ارتد الشريبي إلى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل في أسلوب لاذع من السخرية والتهكم، وصور أثناء ذلك ظلم الكشاف (المدير) والملتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب كما صور نظام السخرة أو ما كانوا يسمونه «العونة» وكيف كان الملتزمون يسخرون أهل الريف في زراعة أراضيهم بدون

أجر . والكتاب لذلك يعد وثيقة مهمة في تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه .

وقسم الشربيني شرحه : « هز القحوف » إلى جزأين كبيرين : جزء خصه بتصوير حياة أهل الريف وبيان ما هم فيه من جهل وفقر ، وجزء خصه بشرح قصيدة أبي شادوف . ونراه يقول في مفتتح الجزء الأول إن أهل الريف « ليس لهم انضباط ، وأحوالهم شياط وعياط ، وورڈهم عند الأسحار ، التفكير في الغنم والأبقار ، وتسبيحهم في الظلام ، هات النبوت والحزام ، وحط العلف ، وهات الكلف » . وتعرض بعد ذلك لغرابية أسمائهم وكُنَاهم ، ثم وصف حفلة عرس من أعراسهم ، وروى فيها عن بعض شعرائهم :

يا عروسه يا أم غالى أنجلى ولا تبالى
انجلى يا وجه بومه زاعقه وسط الليالى
وجهك بالنقش يشبه وجه ضُبْعَه فى الرمال

ثم يصور الشربيني ما كان عليه أهل ريف عصره من بؤس وفقر ، فمن ذلك أن شخصا منهم رأى فى القاهرة سمك (البساريا) فظنه الكنافة التى يتحدث الناس عنها . ويستطرد الشربيني إلى ذكر فكاهاتهم ونواديرهم فيروى أن رجلا منهم اشتكى شخصا إلى القاضى ، وكان سبب الشكوى أنه نزل حقله بدون أذنه ، وأخذ منه برسيا لدابته ، فأحضر القاضى المتهم وسأله ، فاعترف ، إلا أنه

اتهم المدعى بأنه ضربه ضربا مبرحا ، فسأل القاضي المدعى كيف
تضربه ؟ فرد عليه قائلا : « أتانيك ياقاضى تور ، وأنت إذا نزلت
غيطى يا هل ترى أضربك ، داأنا أكسر قرنك ولا أخليك تطلع
سالم » .

ويضع الشريينى على أهل الريف نوادر يدل بها دلالة بينة على
الجهل الذى كان سائدا حينذاك ، وبما وضعه أن رجلا منهم سأل
آخر : « إيش هجاؤك بريق ؟ فأجابه : ب ، ر ، ب ، ق ، واو ، فقال
له : إيش عرفك أن فيها واوا ؟ فقال له : دلتنى عليها النقطة التى
فوق الواو ، فقال له : إن عشت تبقى فصيحاً لأخوالك ! »

ويتسع الشريينى بوضع النوادر على فقهاء الريف مما يصور
جهلهم الشديد ، فمن ذلك أن شخصا سأل أحدهم عن تفسير قوله
تعالى : « يا أرض ابلعى ماءك وباسماء ألقى » ما معنى ألقى ؟
فقال الفقيه : « أى سبرى مثل المراكب المقلعة ! » . ومن ذلك أن
فقيها منهم ذهب إلى أحد العلماء فى القاهرة ، وطلب منه أن يقرأ
عليه أجرومية النحو على مذهب الشافعى ! وهو مذهب معروف فى
الفقه الإسلامى لا فى نحو اللغة وقواعدها .

ويعرض الشريينى بعد ذلك طرفا من خطبهم يوم الجمعة عرضا
لا يلم به القارئ حتى يمعن فى الضحك ، واقرأ له من خطبة :
« اعلموا يا أهل بلدنا أن عندكم قمح كثير ، وتبن وشعير ، وأنتم
فى خير من رب العالمين ، فأنتم تفيقوا لزراع الوسية (أرض الملتزم)

وإلا صَبَّحكم الكاشف بدهاية وبليّة، وغدا تسرحوا للعونة
والسخرة، وفيقوا « انتبهوا » للغنم والبقر، وافحتو أبياركم، وفيقوا
لدوركم وجداركم، وأكرموا الخطار بالعدس والبيصار، تنجوا من
عذاب النار. على ايش يا حباب تهجرنا بلا سبب، الله الله !
قولوا لا اله إلا الله، من وحَّد الله ما خيَّبه الله، آمين والحمد لله
رب العالمين»

والخطبة كما ترى عامية، وفيها ما يدل على بؤس القوم وأن
طعامهم « العدس والبيصار » كما أن فيها ما يدل على بطش
الكاشف وما عُرف به العصر العثماني من العونة أو السخرة ونحن
لا نصل إلى قوله : « على ايش يا حباب » حتى نفرغ إلى الضحك
على هذا الخلط في خطبة الجمعة التي أريد بها إلى الوعظ الديني،
فإذا هي تخرج إلى هذا الهذر والهزل.

وأساس الفكاهات في الكتاب المفارقة في المنطق، فالحقائق
تنقلب صورها أمانا وتنعكس، وكان ابن سودون على مامر بنا في
غير هذا الموضع يقيم فكاهته على هذا الأساس، ويظهر أن
الشربيني كان يتأثر به في صنع فكاهاته، وقد ذكره وأشاد به غير
مرة في كتابه. ونقل عنه الخطاب السابق الذي كتبه أحد أبناء
الصعيد إلى أبويه في القاهرة، وأضاف إليه خطابا أرسله بعض
فقهاء الريف إلى صديق له في بولاق، وهو يجري على هذا النمط :
« السلام من الفقى أبو على الى اسمه محمد على حضرة

صاحبنا الى يطالع زى مايطلع الزرع فى الغيطان ، ويتكلم بالفهامة ، وياما له علينا شهامة ، الى يبيع الكتب المنظومة من الكلام زى قصة الجارية تودد والورد فى الأكمام ، حاوى الكتابة فى السطور ، ومن يعرف كتاب الفخ والعصفور . وأنا فى شوق واشتياق لا يحمله جبل ولا ناقة ولا حمار ولا حمارين ولا بغل ولا بغلين ولا زرافة . وأنا كنت أريد أجيك وحياة رأسك ما عوقى إلا سرموجتى مقطعة . وأنا أقول لك شوف لى كتاب كنت شفته من زمان وسمعت به . آه عليه ! وياما قالوا لى عليه الناس ، وهو قصة مدينة النحاس ، وما جرى فيها من العجائب والغرائب . وأنا امبارح كنت رايع أشيع لك كلام افكرته وعاود نسيته ، الله يسامحك ويسامحنى ! الله ، الله لا غالب إلا الله ، والسلام عليكم وعلى من كانوا جيرانك على اليمين والشمال . وكتب هذا الكتاب أبو على واسمه محمد . وكتب عنوانه : « توصل دى الورقة مع أبو عمارة الى يبيع فى بلدنا الفول الأخضر والمش والزيت الحار ، ويوصلها لبلاق ، وواحد يوصلها لسوق الكتب الى يقولوا فيه : حراج حراج »

وفى هذا الخطاب غفلة واضحة ، وفيه أيضا هذا الجهل الذى يجعلنا نضحك لأنه يخالف مألوفنا فى العبارة والتفكير والمعرفة .

وما يزال الشريبنى يعرض علينا نواذر عن أهل الريف مازجا لها

ببعض النوادر القديمة التي قصها الرواة عن جحا وأبي نواس وغيرهما .

ويخرج الشربيني من هذا الجزء الذي اعتبره كالمقدمة لكتابه إلى الجزء الثاني الذي عُني فيه بشرح قصيدته التي أشرنا إليها . ونراه يقف أولا عند نسب الناظم وهو أبو شادوف فيذكر الآراء المختلفة التي قيلت في هذا النسب على نحو ما يصنع شراح القصائد الجديدة . ثم يتحدث عن قرينه واختلاف الرواة في اسمها ، ويستدل لكل اسم بشعر يؤيده ، وأخيرا يوفق بين هذه الآراء المتضاربة . ثم يتركها إلى الكلام عن أسرته وخاصة أباه البائس الذي كان يملك همارا أعرج وعنزتين وحصاة في ثور الساقية ونصف بقرة وعشر فرخات وديكا وأربع كيات نخال من شعير .

وما زال يتكلم عن أبي شادوف وعن والده وحياته ووفاته ، حتى إذا تم له كل ما يريد من التعريف بالشاعر وأسرته انتقل إلى الكلام عن القصيدة نفسها ، ويقف عند كل بيت من أبياتها ، فيشرحه شرحا مفصلا ، وهو يعتمد في هذا الشرح على معجم لغوى يسميه « القاموس الأزرق والناموس الأبلق » .

والقصيدة ليست خفيفة الروح ، وإنما الخفيف والطريف حقا شرحه لها وما ساقه أثناء هذا الشرح من تقاليد أهل الريف في عصره وعاداتهم ومآكلهم ومشاربهم ومجتمعاتهم ومجالسهم وكيف كان العثمانيون يظلمونهم ، وينهبون طبيات أرضهم ، وكيف ساموهم

سوء العذاب . وكان مصر بقرة حلوب فهم يعتصرونها ، ولا يبقون
لأبنائها قطرة تروى ظمأ أو تشفى غليلا وطبيعى أن تفسد حياة
المصريين وأن تتحول إلى هذه الصورة البائسة من الجهل والفقر .
والشربىنى يعرض علينا ذلك بفكاهاته ونوادره .

وفى هذا الجزء الثانى من كتابه خطبتان صاغها على نسق خطبتي
الجمعة الطويلة والقصيرة ، وقد بناهما على ذكر المأكولات التى كان
يجرم منها الشعب المصرى فى عصره ، ولا يعرف أكثرها
إلا سماعا ، وهو يستهل القصيرة على هذا النمط :

« الحمد لله مزيل الحزن .. واعلموا أن اللحم الضانى سيد
الأطعمة ومصلح للبدن ، واعلموا أن القشطة لا تترك ، وأن المهلبية
أحسن وأبرك ، فتهياؤوا لأكلكم وشربكم ، وللأربعة الأعيان : التين
والزيتون والخوخ والرمان .. والستة الباقية من العشرة الأطعمة
المفتخرة : الماوردية ، والمهلبية ، والشعرية بالزغاليل المربية ،
والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر ، والكنافة المتبللة
بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ، والقطايف الغارقة فى
السمن والعسل ، والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلادة
الموصوفة ، والخرفان المعلوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية ، متعنا
الله وأياكم بهم أجمعين . اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات ، واجمع
الشمل بعد الشتات ببقاء السكر النبات ، مَنْ أصله من

القصب الملوانى . اللهم وأيده بأرماح القصب ، وبسبايط الرطب ،
وبعناقيد العنب ، واجمعنا عليه من أول النهار وفي وسطه وآخره ،
اللهم وأهلك الثلاثة الفجار : العدى والبسلة والبيصار . واقتدوا
بسنة خير الآتام ، ولا تتضاربوا ولا تتخابطوا ، وكونوا عباد الله
أخوانا » .

وعلى هذا النحو من الهزل تناول الشيخ الشريبنى هذا الموضوع
الجاد الصارم ، موضوع خطبة الجمعة ، وما يكون فيها من وعظ
وإرشاد ونهى وتقريع ودعاء بهذه الطريقة الهزلية وما تحمل من لدع
ساخر بما تصور من بؤس المصريين فى العصر العثمانى بؤسا لا يدانيه
بؤس . وتعمد أن يجلب بعض الصيغ التى تعود الخطباء فى صلاة
الجمعة أن يذكروها ولكن بعد أن حولها على طريقته
الفكهة ، وما من ريب فى أن هذا كله فكاهة لما يحمل
من مفارقة للمنطق والمألوف . والحق أن الشريبنى كان من أعاجيب
زمانه فى الهزل والسخرية والهنر والتندير .

فِي الْعَصْرِ الْجَدِيدِ

المضحك خانه

رافقت المصريين هذه الروح الفكهة في عصرهم الحديث ، وأكبر من اشتهروا بها في النصف الثانى من القرن الماضى الشيخ « حسن الآلاتى » المتوفى سنة ١٨٨٩ وقد بدأ حياته بالدراسة فى الأزهر ، ثم تحول إلى الغناء ، فارتقى به ووضع كثيرا من أغانيه ، ومن أجل ذلك لقب بالآلاتى ، وكان خفيف الظل كثير الدعابة . وتروى عنه نواذر وفكاهات كثيرة ، من ذلك أن أحد الوزراء أهده « مركوبا » فى يوم عيد ، فلما وصلت إليه الهدية أرسل يشكره قائلا : « إن كل شخص يحشر يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويقال إنه عاد إلى بيته يوما فسأل زوجته : « ماذا أعددت من الطعام » ، فقالت : « ليس عندنا طبيخ ، ولكن أعدنا لك خبزا

وشَماما » ، فجلس يأكل من الخبز والشمام ، وبينما هو في طعامه إذ سمع رجلين يتشاجران في الطريق ، وأحدهما يسب الآخر قائلا : « يارجل ياطبيخ » فأخذ الرغيف في يده ، وخرج إليهما مسرعا ، وهو يقول : « أين الرجل الطبيخ ؟ » فضحك الناس وانفضت المشاجرة . وفقد بصره في أواخر حياته ، وتصادف أن سمع رجلا يتغنى بين قوم بأغنية من أغانيه ، وهو يقول في أثناء غنائه : « أنا اليوم أغنى كالشيخ حسن الآلاتي تماما » فقال له على الفور : « لا ، بس ناقص العمى ، يابنى » .

وله كتاب سماه ترويح النفوس يقع في جزأين ، وقد بناه من الأزجال الفكاهية والمواقف الهزلية ، وهو يتحدثنا في مقدمته أنه اتخذ وجماعة من رفقائه الفكهين مقهى في حى الخليفة سموه « المضحكخانه » كانوا يجتمعون فيه على التقليل والتندير والفكاهة ، وقد نصب نفسه رئيسا على الجماعة . ثم يأخذ في سرد هزلياته من أزجال وغير أزجال . وهو في أكثره يقلب المواقف الجادة من مثل الدعاوى والعرضحالات إلى مواقف هازلة ، وكثيرا ما كان يتعرض للتهنئة بزفاف فيصوغه هذه الصياغة أو ما يماثلها : « تهنئة للسيد العتيد الأعمى البليد . قد سرنا ما سمعناه من النائحة ، من عقد خرايش المصونة ، الدرة المكنونة ، وإنه لما خفقت بالمضحكخانه أعلام السرور ، وعمَّ جميع المحبين الكدر والحبور ، بزواج البنت ، الست نسيم الصبا هانم ، سلالة الأخيار

البهايم لحضرة الشاب النشال ، الذى صار من الآن لتقديم الزمان
كثير المال فقير الحال » .

ومضى فى مثل هذا الهزل الذى يصيبنا بغير قليل من الدهول
لكثرة ما يرتفع بنا ويهبط فى هذا المنحدر من منحدرات الضحك وهو
منحدر يقوم على المفارقات إذ يذكر فى المديح مثلا الكلمة وضدها
على نحو ما يلاحظ القارئ فى أوصاف العروس السابقة وفى نحو
قوله فى افتتاح خطاب : « إلى السيد المهاب والضبع الوثاب
الصادق الكذاب عالم القصر (فى الصلاة) ومصلى الظهر وتارك
العصر ، من تهابه الخرفان ولا تحتقره الشجعان » . وقد أكثر من
الأزجال فى كتابه . وربما كان أطفها ما أنشده بمناسبة زواج ابنته
يصف ما أقامه لها من مهرجان حافل ، وهو يستهله على هذا
النمط :

أحمد الله تمت افراحى الجليله

والحسود مكمود وأحزانه طويله

كنت يوم فى المنيرة نايم ممطط

بعد موت أمى وأنا زعلان مزقطط

مادريت إلا ونسوان جت بطبله

الى لابس حبره والى لابس سبله

قلت للزوجه الحقينى يا فلانه

قالت : اسكت دول نساء أصحاب أمانه

فيهم الحرة الكريمة أهل السيادة
ست دلالة حير تسمى سعاده

ثم يقول :

في سنة خمس وألف وتلتميه
في ربيع الثاني كان عقد البنية
والولد قاصر وأمه له وليه
أما أبوه نفسه مايطفئش الفتيله
قالت الزوجة الصداق جاب طقم صيني
قلت مقصودك بخزبك تقمصيني

لما أنام عريان تعالى قرفصيني
إن لقيت شيء خديه وانتي الوكيله
راحت السُّكره وجاتني ألف فكره
صرت أحسب في الجهاز كره بكره
قالت اخواني الكرام أهل المبره
كل ماتطلب يحبك ولك الجميله
صار جهاز البنت يدخل بالمحارم
شيء كثير عم الأجانب والمحارم
من أكارم دأهم فعل المكارم
لكن « الشمسى » بدأنا بالفضيله

والهمام من يأتي بابه كل وافد
أعنى عثمان بك رفيع المجد خالد
ابن قطب العصر راشد كل قاصد
اجعله في دفع المهالك لك وسيله
وانتهى لي كل خير من بذل فكري
واشتهر بين الخلايق فضل صبري
جات مهمات الفرح والعرس تجرى
مثل ما تجرى ورا الناقه الفصيله
قلت للطباخ تعال اكتب لي قائمه
لاجل تبقى شهرتي في مصر قائمه
جا جلف ما ياخذ إلا الأجره صايمه
كان جدع صادق أمين إيدّه طويله
قال لي اكتب مركبين ملح انجليزي
وأربعين فدان فسيخ مدموغ باريزي
ألف قنطار توم وربع فريك عزيزي
غير حصانين فجل وأردبين بليله
ألف قنطار زيت قزازه للقطايف
لتريه فول مدمس للخشايف
مش قنطار للبلوطة والنواشف
عدس فدانين وقطعة جنزيله

طن بقدونس بسله ألف رزمه
 يملحوا السلطة يخلوها جميله
 بعد عشرين عصر من شوال افندى
 ليلة السبت ابتدت بالفرح عندى
 من عشاها والأمم تقطر وتندى
 مثل كئيبان رمل من وادى مهيله
 فجر يوم السبت لاح وفضلت أهاق
 دور أقول ياناس ودور يامسلكاتى
 حين سمعنى استغيث روى لهاق
 دق ليله ماله ليله مثيله

ويستمر فى هذا الهزل الذى كان يملأ به « المضحكخانه العلية »
 والذى كان دائما يتحول إلى تهريج واثارة للضحك وكأن الآلات
 أراجوز والناس من حوله يتفرجون من أمثال حسن (بك)
 الشمسى وأحمد (باشا) راشد وعبد الله (باشا) فكرى ، وهم
 يضحكون وهو لا يكف عن تهريجه وهزله .

ألقاب وأدباء

من طريف ما كان فى عصر إسماعيل وابنه توفيق أن إبراهيم
 طاهر وعبد الحميد نافع أخذوا يستعرضان الأدباء والشعراء فى
 عصرهما ويعطيان لكل أديب ولكل شاعر لقبا على سبيل التندر .

فمن ذلك أن محمود صفوت الساعاتى كان نحيفا قصيرا كثير الحركة والتلفت حتى إنه يشبه الديك فى كثرة وثباته ولفقاته ، فسمياه ديك الجن وهو اسم شاعر قديم . وكان السيد على أبو النصر نديم إسماعيل وشاعره طويلا طولا مفرطا ، فسمياه ابن العماد ، وهو من المؤلفين الماضين . واشتهر على اللبثى بالظرف والفكاهة ، فسمياه أبا دلامة ، وهو اسم نديم عباسى ، وكان محمود سامى رشيقا فى القد والقامة ، فسمياه ابن رشيق ، وكان فى عين السيد صالح مجدى بعض حوص (ضيق) فسمياه الأحوص ، وكان الشيخ حسين المرصفى ضريرا ذكيا فسمياه أبا العلاء ، وكان صهره الشيخ زين المرصفى لا يتكلم إلا قليلا ، فسمياه ابن السكيت .

وعلى هذا النحو كانا ينتخبان لاسم أحد المعاصرين من الشعراء أو الكتاب اسم شاعر أو عالم قديم يدلان باشتقاقه على ما يريدان من تصويره . وتبعهما فى ذلك محمد أكمل ، فسمى طائفة بمن عاصروه أسماء جديدة مثل ابن المقفع وابن هرمة ، وهو اسم شاعر عباسى ، وكل ذلك لغرض الضحك والتندر .

ولم يكن بين المصريين حينئذ أديب أو شاعر إلا وهو يشارك فى هذا الفن من الدعابة والفكاهة ومما يروى من ذلك أن رياض (باشا) كان يشغل وظيفة « المهردار » فى عهد إسماعيل ، وأمر أن يوضع لكل حجرة فى قصر عابدين عنوان يدل عليها ، وكان بن

الغرف غرفة خاصة بالشيخ على الليثى نديم إسماعيل وشاعره ،
فأمر أن يكتب عليها « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء
ولا شكورا » مداعبا بذلك الشيخ الليثى ، فلما وقع نظره عليها لم
يلبث أن أنشد :

كان عندنا ساقيه عجب تسقى (رياض) الجلنار
دورنا فيها النور عصى دورنا فيها (المهر دار)

والتورية واضحة . ومما يروى عن عبد الله (باشا) فكرى
أديب القرن الماضى المشهور أنه رأى شيخا يسمى « السمنى »
جالسا فى موضع ظاهر للشمس فقال يا شيخ سمنى أما تخاف أن
تسيح من الشمس ، فأجابه توا أنا أقدح فكرى .

وكان محمد عثمان جلال مترجم مولير فى القرن الماضى خفيف
الروح ميالا للفكاهة والدعابة ومن النكت المستملحة التى تروى
عنه أن محمد سكر الكتبى دعاه مع جماعة من الأدباء لتناول الغداء
عنده ، وتأخر الغداء ، فدخل محمد سكر يستعجل الطابخين ،
وغاب ، وسمع المدعوون « الهاون » يدق دقا شديداً ، فتساءلوا
ترى ماذا يصنعون ؟ فأجاب محمد عثمان جلال على الفور : دول
بيكسروا راس سكر . وتأخرت ترقيته فى عهد رياض (باشا)
ناظر النظار ، فكتب إليه :

الخير على الناس غم وفاض وكل إنسان استكفى

وبس نا يا عم رياض وقعت من خرق القفه

وبما كان يتهمكم به المصريون ويتندرون به في مجالسهم أثناء هذه الفترة التركية من حياتهم مصورين عجرفة الترك عليهم بينما يأكلون من عرق جبينهم وخيرات بلادهم هذه السخرية التي كانت تدور على كل لسان قالوا : « إن محمد أغا التركي كان يتسول ويقرع الأبواب في عنف » فيقال له : « من ؟ » فيقول : « هات حسنة لسيدك محمد أغا »

وعلى نحو ما كانوا يتهمون بالترك كانوا يتهمون بالأجانب الذين يبتزون أموال المصريين عن طريق الربا الفاحش ، ويتندرون عليهم ، فمن ذلك أن أحدهم لقي بعض الفلاحين في يوم شديد البرد ، واسترعى نظر أحدهم أنه لا يلبس قفازا في يديه ، فلما قال ذلك لبعض رفاقه أجابه توا أنه ليس في حاجة إلى قفاز مادامت يدها في داخل جيوبنا . وأخذت تكثر الصحافة الهزلية ، وتكثر فيها الفكاهات السياسية والاجتماعية .

الصحف الهزلية

لم نكد نوجد لأنفسنا صحافة يومية في عصر إسماعيل حتى ظهرت صحف هزلية ، تستمد من هذا الجانب الفكه الخالد فينا ،

وزكاه فيها أننا أخذنا نطلع على الصحافة الغربية ونقتبس مما فيها من سخرية ونقد لاذع في السياسة وفي المجتمع . وبذلك أخذت فكاھتنا تتحول من الهزل والقفش والتورية اللفظية إلى كل خلل في حياتنا السياسية أو حياتنا العامة ، فتستخرج منه السخرية واللفظة المضحكة .

وبذلك خرجت فكاھتنا من طور إلى طور، فاستبدلت بالأشخاص واللغو مصالح الأمة، وبسلوك الفرد سلوك الجماعة . وأشهر من بدأ هذا التطور صنوع وعبد الله نديم، ويعرف الأول بصحيفته الهزلية « أبو نظارة » بينما يعرف الثاني، وهو من زعماء الثورة العراقية، بصحيفته : « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » ونقف وقفة قصيرة عند كل صحيفة من هذه الصحف، ثم نتحدث عن صحف أخرى تلتها .

أبو نظارة

أنشأ يعقوب صنوع هذه الصحيفة سنة ١٨٧٦ وكانت تجرى على السنة المصريين باسم « أبو نضارة » وقد استعان فيها باللغة الدارجة والصور الكاريكاتورية ، وصب شواظا من نار على الخديوى إسماعيل وسياسته الخرقاء وجشعه وبذخه، فأغلق صحيفته سنة ١٨٧٨ ونفاه من البلاد فذهب إلى فرنسا . ومن هناك كان يرسل بصحيفته إلى مصر في أسماء مستعارة حتى تصل إلى

قرائه، فمرة يسميها « أبو صفارة » ومرة يسميها « الحاوى الكاوى » ونحو ذلك .

وصنوع فى هذه الصحيفة يصور فى وضوح الروح الوطنية التى بثها جمال الدين الأفغانى وتلاميذه من أمثال الشيخ محمد عبده . وكان لصنوع فيها هدفان : مهاجمة الامتيازات الأجنبية ومهاجمة الخديوى إسماعيل وسياسته الحمقاء وظلمه الصارخ للمصريين ، وهو يصور ذلك فى مقالات وقصص ورسوم كاريكاتورية ساخرة . وتارة يسمى إسماعيل شيخ البلد أو شيخ الحارة ، وتارة يسميه « فرعون » إلى غير ذلك من أساء .

ونعرض لبعض رسومه التى تصور فساد الحكم حينئذ ، فمن ذلك صورة تضم فلاحا هزيلا ، وبجانبه إسماعيل سميننا بطينا وأمامه رئيس وزرائه ، وفى يده اليمنى سلة عليها مأكولات فاخرة وفى يده اليسرى سلة أخرى بها قوارير خمر مختلفة ، وكتب تحت الفلاح « يا مسلمين اشفجوا الفلاح ييموت من الجوع » وكتب تحت إسماعيل على لسانه : « أنا سمنت من اللحم وشرب الخمرة وأنا خايف من الجماعة (يريد الفلاحين) يقلبونا » وكتب تحت الوزير « كلهم (يقصد الفلاحين) فى جيبي ده ، وأنت خليك وراى ياسيدى ولا تسأل ، والأكل الطازة العظيم والشرب الفاخر والتحويش فى الزيادة دائما » . وفى صورة أخرى نرى إسماعيل واقفا ووزيره

ممسكا بفأس والفلاحين غرقى فى مياه النيل . وواضح أن الصورة رمز للسخرى الملعونة . وفى صورة ثالثة نرى إسماعيل يتقدم حاشيته وفى يده مسدس مصوب إلى جمع من الفلاحين تجمهر على باب قصره ، وهم يقولون : « يحق لك يا فرعون تشرب مُدام (خمر) ، وتعمل ولايم وتصطاد حمام ، ولا تعطى للفلاح الجعان الى على باب سرايتك يطلب الإحسان ، إنما ربنا أحباله طوال ، برضاها مصر فيها رجال » .

ومن الصور الساخرة صورة يبيع فيها إسماعيل الأهرام ، وواضح أنها ترمز إلى تفريط إسماعيل فى حقوق بلاده ، وأنه لم يبق فيها على شىء لم يبعه للأجانب ، وأنه بصدد أن يبيع الأهرام . حتى الأهرام وأحجارها يريد أن يخرجها من بلاده .

وبجانب هذه الصور تكتب الصحيفة المقالات والمحاورات التمثيلية التى تنتقد سياسة إسماعيل أو فرعون مصر كما تلقبه ، وهى تسوق فى أحاديثها عنه تأنيبا وتعنيفا شديدا له . ولا نرتاب فى أن هذه الصحيفة الهزلية تعطى صورة صادقة لإسماعيل وحكمه ، وهى أصدق من كثير مما كتب عنه فى كتب التاريخ !

ونجد يعقوب صنوع فى أعدادها التى صدرت بمصر يصور ما كان عليه الفلاحون من بؤس ، وكيف كان يشتط إسماعيل وأعوانه فى جمع الضرائب ، وهو يسوق ذلك فى شكل محاورات تمثيلية

بين هؤلاء الفلاحين وأعوان إسماعيل من الترك الذين كانوا يحكمون الشعب حكما جائرا ظالما . ويزعم أنها محاورات تاريخية حصلت في أيام العز سنة ١٢٠٤ للهجرة حتى يحتاط لنفسه ، ويعنونها بعناوين ساخرة من مثل القرداقي ، أو حكم قراقوش . وجعل شخوص محاورة : السنجق ظالم أو غلو ، وطرطور أغا القواص ، وأبو نفوسة شيخ البلد ، ويدور الحوار على العوايد والضرائب والأموال والسخرة . ويجرى على لسان أبي نفوسة احتجاجا على السنجق وما يطلبه من الضرائب الباهظة ، إذ يقول له : « هو انتو خليتوا في البئر بكرة أو سلبة ، والتور ، وحياة السنجق ، بعناه بربع الثمن . بجأ أجيب من الهوا المحاييب (ألفلوس) للعوايد ، والدواهي الحارة دى كلها الى خربتنا وجفلت ديارنا وفضحتنا على آخر الزمن » . وعلى هذا النحو لا يزال يعقوب صنوع يصف المظالم التي كانت ترهق كاهل الشعب وتجتثم على صدره بأثقالها لعهد إسماعيل .

وأغلقت صحيفته - كما أسلفنا - في سنة ١٨٧٨ ونفى من مصر ، فتوجه إلى باريس ، وهناك أخذ يصدر صحيفته ويرسلها - كما مرّ بنا - إلى مصر بأسماء مستعارة ، حتى يمكن دخولها إلى البلاد . وقد كفى مثونة الحيلة والحذر من إسماعيل وبطشه وبطش أعوانه ، فتحول يكويه ويشويه بسياطه في صراحة مرة وسخرية لاذعة على نحو ما نجد في هذه المحاورة التي أجراها

في أول عدد نشره هناك، وهي تدور بين شيخ الحارة (الخدوي اسماعيل) وأبي نظارة وأبي القلب «الفلاح المصري» وفيها يقول:
شيخ الحارة - التوبة من دى النوبة؛ اشفق يا بو نظارة، على
عمك شيخ الحارة. جريدتك ضربها قاسى، أخاف منها على راسى.
دى حطت فى قلبى الرعبة، بأقوالها المخيفة الصعبة. إذا رفعت عنى
الجريدة، أرجع لطرايقي الحميدة.

أبو نظارة - أنت عمرك ما تتوب، ولو رجوك بالطوب. دا
أنت أمرك عند الجميع معلوم، بقى كيف أشفق عليك يامشوم، والله
ما أرحمك، يامطعم الناس للسّمك، ياخبيث يامسموم الريق،
ياقاتل الصديق.

أبو القلب - ما تشفجش يا بو نظارة، الشفجة فى الفاجر ده
خسارة، ده قتلنا من الظلم والجور، ونازل علينا زى ما ينزل
السواق على التور. داهيه تلمه، وتعتقنا من ظلمه.

ومعروف أن أحوال مصر كانت تتطور فى تلك الايام من سيء
إلى أسوأ فقد قضى إسماعيل بتبذيره على ماليتها الغنية وأنقض
ظهرها يديونه التى بلغت بهوسه وجنونه أكثر من مائة مليون جنيه،
وتدخلت فرنسا وإنجلترا فى شئونه، وأكرهته على أن يعهد رئيس
وزرائه الأرمنى نوبار (باشا) إلى ولسن الانجليزى بوزارة المالية
وإلى دى بليدير الفرنسى بوزارة الأشغال. ورضخ إسماعيل، وأخذ

يرهب المصريون من أمرهم عسرا بالضرائب الفادحة . ونرى يعقوب صنوع يصور يؤس الفلاحين إزاء هذه الضرائب وما وقع عليهم وعلى البلاد في هذا العهد المظلم في محاولة تخيلها قد وقعت في مجلس الأعيان المصري (الذي كان قد أنشئ حين ذاك) وهي تجري على هذه الصورة :

رئيس المجلس - سعادة ناظر (وزير) المالية أرسل لنا إفادة رسمية ، باللغة الإنجليزية ، لأجل الضرائب الميرية ، لسداد الديون المصرية ، وتحصيل الأموال المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين ألف رنجية ، ودفع المتأخر من الماهية (كانت الحكومة قد توقفت عن دفع رواتب الموظفين وضاعفت الضريبة السنوية المفروضة على الفلاحين) . والذي يتأخر عن السداد بالطريقة الجبئية ، يعامل بالقوة الجبرية ، وتباع أطيانه وموجوداته بمعرفة المديرية ، وأفندينا (إسماعيل) قرّ على هذه القضية ، فكل منكم يبدي رأيه بالحرية ، ولا تخافوا من شيء بالكلية .

الشيخ عبد العال (عمدة إحدى القرى) - إن كانت المادة نفاق ، فاحنا نقر بالوفاق ، وإن كانت حُرّية ، نبدي أفكارنا القلبية . الرئيس - شوف ياشيخ عبد العال ، أنا لا أعرف النضال ولا المحال ، وأنا أحب الحرية فتكلم بخلوص نية ، وسلامة طوية . الشيخ عبد العال - المادة مش حاوجة مداولة ، ولا كثرة محاوره إحنا قبلنا كل النوائب اللى مرت علينا مع جميع المصائب ، وبعنا

ما ورانا وقدامنا، ولا بقاش حاجة أمامنا، ده إحنا ضباع عشمنا في
سى فلسن (وزير المالية الإنجليزي في وزارة نوبار) والجماعة
الأورباوية، وربنا يقيننا بفرجه العميم، ويولّى علينا رجل كريم
حليم، ويعتقنا من جور شيخ الحارة (إسماعيل) اللعين اللى سخمط
وش الحمار طين، وأنا، وحياة راسك مافيش في دارى ولا كيلة
غلة، ولا جاموسة ولا عجلة، ولا قرص جلة. فيكفانا ظلم
وخسائر، والله أعلم بما في الضمائر، وما تنطوى عليه السرائر.

الرئيس - وأنت قولك أيه يا شيخ محمد؟

الشيخ محمد (أحد العمد) - إحنا لا نعرف مدير مالية،
ولا ناظر خارجية، دول تاس ملاعين يרטونوا بلسانهم الأعوج وهم
لابسين بتوع طوال اسمها برانيط، ويدردعوا (يشربوا) نبيذ كثير،
ويتغدوا بلحم المختزير، أما إحنا تاس هواره، نعرف طيب في تربية
الفرس والحمار، واعرف سعادتك أننا مانقبلش زيادة ضرائب
ولا كثرة مصائب، وعاوزين نخفف المربوط، ولا نسأل عن فلسن
ولا مربوط، وأن انقلق شيخ الحارة، ما ندفع ولا باره. وإلا إن كان
القصد بحضورنا الآن الضحك علينا زى زمان، فأحنا وحلانين،
وعن ذاتكم مستغنيين. وإن كنتم عاوزين النياشين بتوعكم خذوها،
والفلاحين أهى قدامكم كلوها، لأن بلدنا، وحياة راسك، بعدما
كانت حايظه كمال اللطافة، أصبحت من كثرة الظلم كوم شقاقة.

والله يجازى ابن الحرام.

وفي فصل من فصول صنوع الطريقة يصور لنا إسماعيل ساهرا حتى الفجر، يناجى نفسه، وقد أوشكت السفينة على الفرق وهو مُقْضٍ إلى وساوسه وأوهامه، يسب نفسه ويلعنها ويلعن الأيام التي ساقته إلى ولاية مصر، ونسوق أطرافا من هذه المناجاة:

«راحت عليك يا أبو السباع، الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة، ده كان يوم نحس، وأنا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زى الطين، المكتوب على الجبين لازم تراه العيون، نعمل إيه فى طمع الدنيا؟ أدبنى صبحت أشقى مخلوقات الله والخوف قاتلنى؛ مائتين عسكرى ومدفعين حول سرايتى، وبرضه مرعوب وكل ما اسمع حد جاي على، انفرع وقلبى يطب، وأقول فى نفسى: آهم ضباط الجهادية وتلامذة المدارس وأولاد البلد والفلاحين جاين ينتقموا منى ويقبضوا روحى ويأخذوا مفاتيح السهاريج وينهبوا الأموال اللى لميتها بغاية التعب والمشقة. بلا هلس، ده أنا سيدهم فى المكر ولا أخاف من ملك الشياطين. أما الجماعة مستحلفين لى بحتة علقه صنعة. ما يطلعش من أيدهم حاجة، البصاصين كثير ومأمور الضبطية جدع. أما أبو نظارة اللعين راح جدد له جرنال ثانى، وقال إنه فى حب الوطن. آهو زى الكلب اللى ينبح، خليه يعوى. آه يا إسماعيل أنت بتسلى غلبك وهك بالكلام ده، إنما قلبك بيرجف وضميرك فى قلق، آهو الليل بيقتوت بطوله، وعينك

ما بتدوق النوم. آدبنى سامع تشخير الأغاوات، يابختهم دول
مبسوطين ولا هم عارقين الدنيا بتعمل بهم إيه، والناس اللى
ما تفهمش الصورة إيه تقول عليهم دول مساكين لكونهم محرومين
من لذات الدنيا، آه يامغفلين والله ما أحد محروم غيرى أنا لكونى
ما بستلذ لا بأكل ولا بشرب من خوفى أن خدامبنى يسَمُونى. ولما
أخرج من البيت، كلما أعدى على شارع وأجد فيه زحمة بيان لى
يوم القيامة جاء، وأنظر بين وشمال، ومن لحظة إلى لحظة يتراى لى
أن العالم رايحة تهجم على عريبتى وتهلكنى. آه من عيشتى،
ما أمرها، والعمل إيه؟ الشيطان يدبرنى...

وواضح ما فى هذا الفصل من تهكم على إسماعيل وما يوحى
إليه شيطانه، فهو قلق يائس قد قطع الرجاء، ومع ذلك لا يزال
يمنيه خُنَّاسه الأمانى، وقد أحس فى عمق غضب الشعب عليه وأنه
يكاد بطير به طيرة بطينا سقوطها، ويلاؤه الرعب والقلق والخوف،
حتى من طعامه وشرابه، ولا يغدو أو يروح فى القاهرة إلا ويرى
الموت نصب عينيه، فالمصريون متربصون له ولا بد أن ينقضوا عليه
ويفتكوا به فتكا ذريعا. وكل ذلك يعرضه يعقوب صنوع فى أسلوبه
الساخر. ونراه فى فصل آخر يدير محاوره بين إسماعيل (شيخ
الحارة) وابنه توفيق ومعهما بعض الوزراء يحملون أوراقا وحقائب
من ناحية وبين عدد من الموظفين مثل عمر شهامة ومجدع وحقق
ومعهم مشايخ الأزهر من ناحية ثانية. وهو فى هذه المحاوره يتخيل

المصريين قد ثاروا بإسماعيل ونفوه عن البلاد، وهى تمضى على هذه الشاكلة :

ضجة تسمع من بعيد، هى ضجة الثائرين وبينهم مشايخ الأزهر يحضون على الثورة، ويقول توفيق: حتى المشايخ ضدنا. شيخ الحارة (إسماعيل): نعطي لهم جراية (خبزا) يسكتوا! وتصل طلائع الثورة ويسلّ «مجدع» سيفه، وقد رأى إسماعيل يهيم بالهرب، فيقول له: طالع تجرى على فين؟ ويتناول «حدق» الأوراق والحقائب التى كانت فى يد أعوان إسماعيل، ويعطيها للضباط والتلاميذ.

عمر شهامة لإسماعيل: آه يا خاسر، ياما عملت فينا؟ حدق: لما توليت يا فرعون، القطر ماكانش مديون، واليوم عليه مائة مليون، والمبالغ دى كلها راحت فين؟ مشايخ الأزهر: بنى بها سرايات، وصرفها فى الفسق والفساد. عمر شهامة: وبدل ما يساعد الفلاح، ويصلح أحوال الزراعة الى هى سعادة أهالى القطر، فرعون بسلامته نهبنا وباع أطياننا ومواشينا، وموتنا من الجوع.

مشايخ الأزهر: فرعون كافر وآخرفته الجحيم، وربنا كريم حلیم.

أبو الخير (إلى الضباط): نسلمكم شيخ الحارة وأولاده ووزيره، اذهبوا بهم إلى الإسكندرية وأنت يا مجدع (باشا) سلمهم

إلى قبطان المركب العثمانية، وهو يجرى اللازم.

وينفذ ذلك الضباط، ويضربون كل من يجرؤ على المعارضة.
ويزعق شيخ الحارة: الحارة حارقي وأنا شيخها، وأنتم مالكم ومالى.
مشايخ الأزهر: جرجروه، ما تسمعوش كلامه. ويغنى الجميع:

انت فين يابو نظاره تيجى تشوفنا منصورين
على عمك شيخ الحاره وعلى أولاده المنحوسين
النهارده يوم عظيم أفرحوا يا أهل النيل

هذه صور ساخرة من المحاورات والمقالات التى كان يكتبها
يعقوب صنوع فى مجلته «أبو نظارة» وهى تدل دلالة واضحة على
براعته براعة منقطعة النظير، فى التهكم والذع السياسى وما يحمل
من سهام مصمية. وكان كثيرا ما يضيف إلى هذه المقالات
والمحاورات أشعارا عامية يصور فيها أطرافا من المهزلة السياسية
التي كانت تمثل حينئذ أمام الشعب كله وفوق أرضه. وقد ينطق
إسماعيل بهذه الأشعار، يصف سوء حاله ووبال أمره من مثل
قوله:

إيه دى العبارة المتعوسه صبحت دوايرى معكوسه
والحسرة فى مغروسه دى وقعتى وقعة خرفان
شرم برم حالى غلبان

ما اعرفش إيه من دا الطالع مقصودهم أبقي خالع
واطلع كده منفض قالع ياعلى لما أصبح عريان
شرم برم حالى غلبان

وجابوا لى عمى الشيخ نوبار وعملوه رئيس الكبار
يحمّر لى عينه زى النار وأنا قاعد قصاده جربان
شرم برم حالى غلبان

ومازال صنوع يرمى إسماعيل بصواب سهامه الشعرية
والنثرية، حتى انكشفت غمة حكمه عن صدر مصر، وخُلع سنة
١٨٧٩م . وحمل من بعده على ابنه توفيق وهوسه وحمقه . ولما نشبت
ثورة عرابي وتطورت الظروف واحتل الإنجليز مصر ظل بصوب
إليهم وإلى توفيق حرابا مسمومة من أعداد صحيفته، يضمنها
سخريته اللاذعة وتهكمه المرير . وكان يتخذ هذه الحراب غالبا من
الشعر العامى على نحو ما نرى فى قوله :

مستر توفيق	ابن إسماعيل
ماله رفيق	فى وادى النيل
الناس سابوه	لكونه خان
مصر واخوه	حتى السلطان
باع للأجنبي	كل الأصحاب
أهبل وغبى	غشاش كذاب

في مصر رجال يخلصوهم
من الأندال الى باعوهم

وواضح مما قدمنا عن يعقوب صنوع أنه كان يتقن النقد
السياسى الساخر إتقاناً رائعاً، وقد استطاع أن يخرج في صور
متعددة من الرسم الكاريكاتورى ومن المقالات والمحاورات
التمثيلية والشعر. وهو يعد في ذلك كله نادرة من نواذر زمانه.

التنكيت والتبكيث

هى أول صحيفة أخرجها عبد الله نديم ، وكان ذلك سنة
١٨٨١ م وكانت وجهته فيها خلقية اجتماعية . وهو فيها يكتب
تارة باللغة الفصيحة وتارة بالعامية . وهذا نمؤذج من تنكيته وتبكيثه
وضع له هذا العنوان : عربى تفرنج . قال :

«وُلد لأحد الفلاحين ولد، فسماه زعيط، وتركه يلعب في
التراب، وينام في الوحل، حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة،
فسرحه مع البهائم إلى الغيط، يسوق الساقية ويحول الماء، وكان
يعطيه كل يوم أربعة جندولات (أرغفة) وأربعة أنخاب بصل . وفي
العيد كان يقدم له « اليخنى » ليمتعه بأكل اللحم والبصل . وبينما هو
يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مر بها أحد التجار فقال لأبيه :
« لو أرسلت ابنك إلى المدرسة لتعلم وصار إنسانا » فأخذه وسلمه

إلى المدرسة . فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى أوروبا لتعلم فن عينته له ، فبعد أربع سنين ركب الوابور ، وجاء عائدا إلى بلاده . فمن فرح أبيه حضر إلى الإسكندرية . ووقف برصيف الجمرك ينتظره ، فلما خرج من القلوكة ، قرب أبوه ليحتضنه ويقبله ، شأن الوالد المحب لولده ، فدفعه في صدره ، وجرى بينهما هذا الحوار :

زعيط : سبحان الله ! عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جدا .

معيط (أبوه) : إمال يا بنى نسلم على بعض إزاي .

زعيط : قل بون أريفى (Bonne arrivée) وحط إيدك فى إيدى مرة واحدة ، وخلاص !

معيط : هو يا بنى أنا باقول منيش ريفى .

زعيط : موش ريفى يا شيخ أنتم يا أبناء العرب زى البهايم .

معيط : الله يسترك يا زعيط ! والله جا خيرك . يا ابنى فوت روح فوت . فلما وصل به إلى الكفر (القرية) قامت أمه وعملت له طاجنا فى الفرن مملوءا للحما يبصل ، فلما رآه قال لها : ليه كترت من الـ .

معيكه (أمه) : من ال إيه يا زعيط ؟

زعيط : من البتاع اللى اسمه إيه .

معيكه : اسمه يا بنى الفلفل .

زعيط : نو، نو، ال ده، ال بتاع اللى ينزرع .
معيكه : الغلة يا ابنى .
زعيط : نو، نو، ده اللى يبقى لو راس فى الأرض .
معيكه : والله يا ابنى ما فيه ريحة التوم .
زعيط : البتاع اللى يدمع العينين، اسمه «أونيون» .
معيكه : والله يا ابنى ما فيه أونيون، دا لحم ببصل .
زعيط : سى، سا، بصل بصل .
معيكه : ويا زعيط يا ابنى نسيت البصل، وانت كان أكلك كله
منه .

وهذه صورة بارعة لعبد الله نديم فى السخرية ممن يتعلمون
ويسافرون إلى أوربا ويعودون فيبرأون من بلادهم وأسرهم
وأوطانهم، لأنهم أصبحوا عبيدا للغرب وكل ما هو غربى، فلا
يجلون ولا يحترمون إلا ما شاهدوه لدى القوم، بينما يهزأون بكل
ما هو شرقى ووطنى ناسين حقوق بلادهم وأهليهم .
ومن أمثلة نقده الاجتماعى ما كتبه تحت عنوان : محتاج جاهل
فى يد محتال طامع، وهو يجرى على هذا النمط :
احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه، فقصد أحد التجار
الأجانب، وطلب منه المبلغ، فجرت بينها هذه الحكاية بحضور أحد
النبهاء :
الزارع : عاوز مائة جنيه بالفرط (بالريح) يا سيدى .

التاجر : فرط المائة عشرين كل سنة .

الزارع : اعمل الى عمله .

التاجر : شيل عشرين من مائة يبقى كام .

الزارع : هو أنا كاتب ، شوف يفضل كام .

التاجر : يبقى سبعين .

الزارع : يادوب كده .

التاجر : دى الوقت صار لى مائة جنيه ضم عليهم عشرين

واكتب الكمبيالة .

الزارع : اكتب وخذ الختم أهو .

وفى وسط السنة قدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة

أرادب من السمسم وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين

من الشعير ، وجاء يحاسبه ، فكانت الحكاية هكذا :

الزارع : طلع لى ورقة بالحساب ياسيدى .

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنيه ، وقمح بعشرة جنيه

وسمسم بثمانية جنيه وفول بعشرين جنيه وشعير بعشرة جنيه ،

يبقى الجميع كام ؟

الزارع : ما قلت لك من ديك المرة ما اعرفش الحساب .

التاجر : يبقى أربعين جنيه ، شيلهم من مائة وعشرين يبقى

الباقى كام ؟

الزارع : مين يعرف ؟ شىء كثير .

التاجر : الباقي تسعين جنيه ، وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى
مائة وخمسة عشر طالب انت كام ؟ ثلاثين ، يبقى مائة وستين ضم
عليهم أربعين فرط (ربح) تبقى الكمبيالة تنكتب بمائتين وعشرة
ونصف .

الزارع : هو ايه ؟ مش الأصل سبع عشرات وعشرين ،
وجاهلهم ثلاثين وثلاثين ، شيل منهم ثمن البتوعات الى جبتهم يبقى
لك دى الوقت مائتين وعشرة بس ، والنص جيبته مين ؟
التاجر : النص أجرة كتابتي ، ليس من الأرباح .
الزارع : أيوه دى الوقت صحت الحسبة . السنة دى أبيع لك
خمسين فدان فى عشرة جنيه يبقى لك أد إيه بعد كده ؟ يا جنيهين
يا ثلاثة ، خد لك بهم جاموسة ، وتبقى على رأى المثل : شيل ده على
ده يستريح ده من ده .

وهذه الحكاية كسابقتها فيها مبالغة مسرفة ، ولكننا نحصل منها
على صورة مقاربة كاريكاتورية أو مضحكة ، إذ كان النديم يعرف
كيف يكبر العيب الخلقى أو الاجتماعى تكبيراً لا نلزم به حتى يغلبنا
الضحك لما عرض فيه العيب من استطالة وتشويه .

الأستاذ

أخرج عبد الله نديم هذه الصحيفة سنة ١٨٩٢ وقسمها بين

الفصحى والعامية ، يكتب فيها المقالات السياسية ، كما يكتب حوارا عاميا بين شخصين من الشعب أو أكثر يعرض فيه لجانب خلقى أو اجتماعى بالنقد يكسوه هذه الحلة الفكاهية التى مرن عليها فى التنكيت والتبكيت .

وفى كل جانب من الصحيفة نجده يعيب الانسياق الشديد نحو أوربا كما يعيب السقوط فى مهاوى الرذيلة . وعنى عناية خاصة بالدعوة ضد الخمر ، وما تجره على صاحبها من ضياع دينه وماله . ومن طريف ما كتبه فيها « صورة عرضحال خامورجية بندر طنطا » وفيه يقول على لسانهم :

« إننا كنا أكثر الناس فى الليل جنودا ، ومعاملة ونقودا ، كانت تأتينا السكارى من عمد ، ومشايخ بلد ، وأرباب الرواتب ، وأصحاب النكت والغرائب ، فيدخلون علينا من كل حذب ، بغاية الخضوع والأدب ، فيجلسون حيث نأمرهم ، ولا يتكدرن منا ولو نهرهم ، ويأكلون ويشربون ، ولا يبالون : يربحون أو يخسرون . حتى إذا دبت الخمر فى رءوسهم ، ولعبت بنفوسهم ، قاموا يهتزون وهم السفهاء ، ويرقصون ولا رقص عواهر النساء ، فتارة نضع فى عنق الواحد منهم جبلا ، ونسقيه من كؤوس السخرية ذلا ، ونأمره ولا مائة مرة بالقيام والقعود ، وهو يضحك ويلعب كأنه ، ولا تشبيه ، من بعض القروء ، وتارة نصفعه على قفاه باليد أو بالنعال ، وهو يقدم لنا واجب الشكر الصحيح على تلك الفعال .

ثم نفتح لهذا الخبيث ، باب الحديث ، فيحدثنا حتى عن أهل بيته ،
وحيه وميته ، ويقر لنا بكل ذنوبه ، وجميع عيوبه . وبعد الحديث
والخلاعة ، نسلب منه النقود والساعة ، وربما نعطيه كمبيالات
فيختمها أو يمضيها ، وهو لا يدري ما فيها . ثم نرميه خارج
الباب ، كأنه من بعض الكلاب ، فيتمدد كالميت في الرحبة ، وربما
كسرتة عربة ، وتارة يبيت في الضبطية ، ويغرم النقدية . ومع ذلك
لا يهوله ما جرى في الليلة الماضية ، بل يبادر إلينا في الليلة الآتية ،
وربما جر إلينا أصحابه ، وخواصه وأحبابه ، ونحن لا نعدّ ذلك منه
جيلا ، بل نسقيه معهم كأسا وبيلا . وكم لعبت الخمر بعقول ،
وأتت إلينا بفحول ، نسقيهم السموم المقطعة للكبود ، ونأخذ منهم
معظم النقود . هذا ونحن نبعث المراسيل لاستحضار البراميل ، حتى
صار عند أقل عنتيل ، زهاء ألف برميل .»

وما يزال النديم يلقي نصائحه الخلقية والاجتماعية بمثل هذه
الصور الفكهة ، وكان بارعا في تلمس العيوب والأخطاء وحشد
جوانب التشويه فيها على قرائه وكأنما كان في يده بوق فكاهاى ينفخ
فيه .

وكان اتخاذه للعامة سبيلا إلى أن ينشر في مجلته كثيرا من
الأزجال ، تارة ينظمها بنفسه وتارة ينظمها بعض قرائه أو بعض
الأدباء ، ممن يعجبهم نقده وما يمسح عليه بالضحك الخفيف ،

فيتابعونه في طريقته، ويكتبون له أجزالا تحتوي على شئ من
التهكم بمن يشذون على المجتمع في عادة أو خلق، وينشر لهم
أزجالهم كهذا الزجل الذى نشره لطالب أزهري، يسخر فيه من
يتعلمون اللغات الأجنبية ويتشدقون بها في أحاديثهم، وهو يطُرد في
هذا السياق :

والساعة بالعربي عشره	الشمس طلعت صبح النوم
ياللى على سنجة عشره	والله عجب يا جيل اليوم
يصبح السيد مملوك	حقا الزمن ده زمن عايب
والحر ضاع جنب الصلوك	والندل دايما فيه غالب
أما السلام أجره على الله	« بنونسوار » صارت بالكوم
سمى وحقق باسم الله	وعمتك « جدنايت » اليوم
وادى « البرول » لحقه في كعبه	الوقت ده وقت « البردون »
وابن الحرام حسبه ربه	وخدلى بالك كلمة « جون »
خسر وأحواله تحسر	صعبان على جيل اليوم
لكن نقول كله مقدر	ولعدش ينفع كتر اللوم
وع « الفرير » قبل الكتاب	تلقى الولد تم السبعه
مقدرش اقولك قلبه داب	وبعد ما يتم التسعه
مع الشهادة السنويه	سنة ف سنة يكبر دى الواد
ويمتنح في البكالوريه	ومره عن مره يزداد
ودحنا عارفين آخرتها	ويروح بها مطرح مايريد

ما يفتكرش عاقبتها
 مسبب القصة وعاج
 أكن جيبه صبح رايج
 لابد ما تقوله « منشير »
 وتعظمه وتديه « سفير »
 وادى الغرور تالف عقله
 ومين هناك حد يسأله
 الا الشيطان فيه متعشم
 ويظن أنه متعلم



ويدور ويفهم أنه السيد
 تبص في السكه تشوفه
 زى القمر وقت كسوفه
 إن كان مرادك تنده له
 وتشد حيلك وتقف له
 ويسير مع اخوانه « ألود »
 ويقول لنفسه أنا « فرجود »
 متشوفشى منه غير أوهام
 ويعيش كده كل الأيام

والتفت شوف إيه بكره
 وانت مفيش عندك فكره
 يكفاك مساخر « لكسمبرج »
 هو انت طار من عقلك برج
 مفيش كده أبدا غفله
 وكل شيء منك نغله
 وانظر لحال مسقط راسك
 بكل قلبك وحواسك
 وقلت حالها مش ماشى
 وقلت بلدى ممنهاشى

ياواد بقى فُضْك من دول
 والقلب صار منك معلول
 سايس أمورك بزياده
 و« الألدورادو » صار عاده
 دّور على نفسك تلقاك
 الصبح عندك زى مساك
 وفوق يا شيخ من دى السكره
 وشد عن ساعد الفكره
 تركت لغتك بالمره
 ورحت تجرى بلاد بره

هي بلادك دى شويته الى الدول تتمناها
فيها العلوم مستوفيه وبس فتش تلقاها
طاوع وتوب عن دى الدوره وانظر لمصلحة الأوطان
واترك لنا لعب الكوره حب الوطن ده من الإيمان

وبذلك كانت مجلة الأستاذ معرضا لروح النديم الفكهة وروح
قرائه. ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا عيبا خلقيا ولا فسادا
اجتماعيا إلا قطروه تقطيرا هزليا في أزجالهم ومقالاتهم وكل
ما يكتبون.

الأرغول

اختصت هذه المجلة بالأزجال، وكان يخرجها شيخ الزجالين في
أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن، ونقصد الشيخ محمد
النجار، وهو من علماء الأزهر، وكان خفيف الروح خفة شديدة
لا تقل عن خفة روح بيرم التونسي في عصرنا. وبعد خير من
أنجبته مصر حتى عصره في هذا الفن، وكان له مجلس حافل في
مقهى «جراسمو» بجوار «متاتيا» يحضره كبار الزجالين في أيامه
من أمثال إمام العبد وخليل نظير وعزت صقر. وعلى يديه تخرج
غير زجال.

ويغلب على أزجاله النقد الخلقى والاجتماعى، وهو صورة

مكبرة من عبد الله نديم ولكن في شكل أزجال خالصة . ومن نقده
الخلقى قوله في شكوى الزمان :

أشكى لمن غدر الأيام ؟ وأروح لمن صاحب نخوه
وإن قلت يوم خطوه لقدام أرجع ورا ألفين خطوه

دور

أبص ألقى دا راكب حمار وعامل لى عمدته
ودا محزق فى روحه قوى وهو حنة جلده
واللى يشوفو كان مردى مشى بقواسه وعده
واللى الفشل كاده اعوام صبح غنى وصاحب عزوه

وكانت عينه يقظة فقلما يفلت منه جانب من جوانب عصره
يستحق السخرية أو التقريع أو الهزل والفكاهة إلا استغله فى
زجله ، من ذلك ما كان من أول خروج النساء للطرق ، وسفورهن ،
وكان ذلك يعد شذوذا فى عصره ، فسجله فى هذا الزجل ؛

دور يا جوز الدؤاره تلقاها سارحه فى الحاره

دور

جوزك ياخاله فى حاله اتبدل قمحه بنخاله
مش عايز تبقى دلالة صنعته خلت عقله اتلخبط

دور

عايز تستنى فى بيته راضية له بفوله وبزيتته

يا مصيبي دانا ربيته على شانه بخرج واشحطط

دور

يا حرمة مش عاوز منك تمسى ليله عن خُنْكَ
ميت مره يروح يسأل عنك لا ف سلقط بنتى ولا ملقط

دور

يوم تخرج من بيتها الحرمة تركبها بخروجها حرمة
والراجل إن كان له حرمة يمنعها والبيت له أضبط

دور

الراجل إن كان فيه حنكه ما يخلش لمراته خرجه
لكن نسوان « آلافرانكه » دول بشقة ومين فيهم يشبط

دور

إن سمعت فى مرّه بمولد تندب لى وتعمل لى مولد
لو كانت حبله وبتولد تخرج فى يومها وتتخطط

دور

تخرج ومحنه ايديها وتبين سيقان رجليها
وتحب الراجل بعنيها وان شافته تفرح وتقطط

دور

أد انت على الحال دا راسى خليتها ليه تخرج يا « سى »
أنا بدى تفضل فوق راسى تحكم فى بيتها وتشرط

وله زجل سماه زجل « المودة » تهكم فيه على من يتهافتون على البدعة مقلدين للأوربيين ناسين لدينهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وفيه يقول :

يا موضه يا جيل الوز	يا حنيّه من غير بز
يا موضه جيلك معروض	فات السنه والمفروض
يبقى صفار لسه ومقروض	ويسروح يسكر آل ويمز

دور

يا موضه يا جيل الوز	يا حنيّه من غير بز
الجامع يوم الجمعة	فاضى والخماره جامعه
والغيبه في سهره وسمعه	تدبح في الرقبه وتحز

دور

يا موضه يا جيل الوز	يا حنيّه من غير بز
تقليدك للغير ياخيّه	جاب رجلك بعدين في الحنيّه
وغرقت في شبرين ميّه	ووقعت في دين يبحر

وعلى هذا النحو كان الشيخ النجار يعنى في أرغوله وأزجاله بنقد اجتماعى لاذع . وكان له مجلس حافل - كما أسلفنا - في مقهى « جراسمو » بجوار حديقة الأزبكية ، وقد تخرج على يده أكثر الزجالين الذين عاشوا في النصف الأول من القرن العشرين .

مجلات هزلية كثيرة

ونستقبل منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن مجلات هزلية كثيرة مثل « حمارة منيتي » وهي مجلة سياسية فكاهية أخرجها محمد توفيق سنة ١٩٠٠ وكان ضابطا في الجيش ومن رفقة الشيخ النجار ، فلما أحيل إلى المعاش أخرج هذه المجلة .

ونرى دائما على الصفحة الأولى تحت عنوانها هذين البيتين :

يَا مَحَلِّي الْجَدِّ لِمَا يَكُونُ فِي قَالِبِ هَزَارِ يَبْقَى الْكَلَامُ مَوْزُونِ وَرَائِقِ
يَغُورُ الْجَدُّ لَوْ كُنْتَ أَنْتَ غَائِبِ يَاعَمُ الشَّيْخُ هَزَارُ وَأَنْتَ إِلَيَّ فَائِقِ

ومنذ العدد الأول نجد محمد توفيق يعرض لعباس الثاني والشخصيات السياسية الكبرى بغمز لا يوارى فيه . وحدث أن سافر عباس إلى إنجلترا ليتقرب من المحتلين فلمزه لمزا كثيرا . من ذلك مقالة بعنوان : « رقوة بهائم وقلب هايم بس العزايم مالهاش وجود » . وتحت هذا العنوان كتب :

« يابركة عاشورا ، فوق وش الفطورا ، بالجوز وبالطورا ،
يا عم يابو قورة ، سَلِّكْ لَنَا الْمَاسُورَةَ ، لِلْأُمَةِ تَنْسُطِلْ ، مِنْ قَبْلِ
مَا تَنْهَطِلْ ، عِ الْأَخِ الْعَزِيزِ ، اَللَّ يِيْحَسْبُنَا مَعِيزِ ، وَيَفُوتُنَا فِي
مَهَامِيزِ ، وَيُرُوحُ بِلَادِ الْإِنْجِلِيزِ ، وَاحْنَا وَاكْلِينْ بَهْرِيزِ ، وَالْوَاَحِدُ مَشْ

واخذ ، م الدنيا دى حاجة ، غير لطم الخواجة ، أسيادنا النظار
(الوزراء) قايدين فيها راكية نار ، دائماً ليل ونهار ، ياسند
العواجز ، ياجموهر ياحمص ، خايف بطنى تمقص .

ويكفى أن نقرأ لمحمد توفيق هذه العناوين لنعرف ماذا كانت
تحوى مجلته : « الرحلة البلدية في موة مصر بلا دية » « سلموا
للقط مفتاح الكرار » « ياما دَقَّتْ على الرأس طبول » « ياسعادة
الحيوان وياشقاوة الإنسان في حكومة هذا الزمان » « تبديد صاحب
الرمة في أموال الأمة » « كل واحد يأخذ دوره وجحا أولى بلحم
ثوره » ويتحدث تحت العنوان الأخير عن أفراد الأسرة الخديوية
وأَنهم يتقاضون أكثر من ثلاثمائة ألف جنيه في السنة ينفقونها في
ملاهى باريس ومجتمعات لوندرة وجبال سويسرا وأولى أن تنفق هذه
الأموال في تخفيف الضرائب عن كاهل المصريين ومساعدة فقرائهم
وإصلاح البلاد . وفي وصف هذه الحمارة البارعة في النقد السياسى
يقول بعض قرائها المعجبين بها :

حماره ليست لمن يركب تُضْرَبُ بالنعل ولا تُضْرَبُ
ترى بلادا باعها أهلها وتسكب الدمع الذى يسكب

مجلة خيال الظل

وأخرج أحمد حافظ عوض بجانب هذه الحمارة سنة ١٩٠٧ مجلة

خيال الظل ، وعُنى فيها بالتصوير الكاريكاتورى ، ولكنه يدنو درجات دون تصوير صنوع فى « أبو نظارة » فليس فيه روحه ولا لذعه . وتقوم المجلة فى أكثرها على مهاجمة الحزب الوطنى ، وتشيع فيها النكتة والروح المرحية والعبارات والصور التى تخز وخز الأبر . من ذلك « حديث الاغتصاب بين حمار وحصان » . يقول الحمار : لو كانوا الحمارة يعتصبوا زنى العربجية كنا على الأقل نستريح كام يوم » ويرد الحصان : يا حشرة ! دول ما بيكملوش يوم .

ومن الصور اللاذعة صورة تمثل زفة تودع اللورد كرومر حين تركه للديار المصرية ونرى فى الزفة مصطفى فهمى رئيس الوزراء ، وتحت الصورة يقول مصطفى فهمى للورد كرومر : « فايتنا لمين ياسندى ! » وصورة أخرى يودع فيها مصطفى فهمى اللورد كرومر على القطار ويعزبه اللورد قائلا : « معلش يا ابو درويش شد حيلك !

وواضح أن هذه الصحيفة مثل سابقتها كانت تغلب عليها العامة .

مجلة السيف

وخرجت بعدها بقليل مجلة السيف لحسين على وأحمد عباس ، وتغلب عليها روح الصحيفة المعاصرة المسماة بالبعكوكة ، وتدور

فكاهاتها على القفش من مثل قالوا لصاحب جريدة مصر :
« صحيح ما فيش فى رأسك ولا شعرة » قال : « لأ عندى
شعرة » . ولما هجم العثمانيون على الإيطاليين فى حرب طرابلس
كثرت الفكاهات فى هذا الصدد ، فمن ذلك : « عندما هجم الجيش
العثمانى قال الطلاينة : « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً
رسول الله » ، ولما اشتدت الحرب وكثرت انتصارات إيطاليا
وفتكها بإخواننا الطرابلسيين كتب هذا التعليق « تشكو مصلحة
التلغرافات من تلغرافات روما لأنها بتختر دم » .

وكان فى السيف باب عنوانه « الدلع » كله قفش ، وباب آخر
عنوانه « قولوا له » مثل :

قولوا لسنجر : « ماكينات ولا غزل البنات » .

قولوا للأسطول الطليانى : « تعاود تجي البر » .

قولوا للترمواي : « مالك حايى ودائى »

وكم ان قولوا له : « اطلع يا قاتل »

وكم ان قولوا له : « الى تعرف ديتة اقتله » .

وكم ان قولوا له : « ناس تنباس وناس تنداس » .

قولوا للأسطول الطليانى : « جك غرقة » .

وبجانب هذا الباب نجد بابا ثالثا بعنوان يصح ، ويتضمن الباب

كثيرا من النقد الاجتماعى مثل :

يصح أنه يبقى صعيدى ولون الطحينة ويلبس برنيطة .

يصح أن الأفندي من دول يفتح قزايز بيرة في قهاوى الرقص
ولبة بيته من غير قزازة .

يصح يبقى شامى عكاوى ويقول عندى رنديفو .
وقد عادت هذه المجلة بعد اختفائها باسم السيف والمسامر ،
واستمرت في هذا النقد السياسى والاجتماعى .

مجلة الفكاهة

كان رواج المجلات الفكاهة دافعا لأصحاب دار الهلال على
إخراج مجلة الفكاهة سنة ١٩٢٦ ، وظلت تصدر نحو ثمانى سنوات
حتى تحولت إلى مجلة الاثنين التى تجمع بين الجد والفكاهة ، ولقيت
مجلة الفكاهة أيام صدورها رواجاً منقطع النظير ، وكان يرأس
تحريرها حسين شفيق المصرى محرر دائرة المعارف الوفدية فى
الكشكول ، وكان مطبوعاً على النادرة ولا يكاد يتحدث جادا . وقد
ابتكر صورا مختلفة للفكاهة فى مجلته ، فمن ذلك أنه كان يعارض
القصائد الجديدة المشهورة فى القديم بقصائد هزلية حديثة من وزنها
وقافيتها على نحو ما صنع فى معارضة لقصيدة أبى العتاهية المشهورة
فى مديح هارون الرشيد والتى يستهلها بقوله :

ألا ما لسيّدنى ما لها
أدلاً فأحمل إذلاها

وهو يمضى فى معارضته لها على هذا النحو الفكه :
 أظن « الوليَّة » زعلانة
 وما كنت أقصد إزعاجها
 أتى رمضان فقالت هاتوا لى
 زكيَّة نُقل فجبنا لها
 ومن قمر الدين جبَّت ثلاث
 لفائف تُتعب شيَّها
 وجبَّت صفيحة سمن وجبت
 حوائج ما غيَّرها طاهها
 فقل لى على إيه بنت الذين
 بتشكى إلى أهلها حالها
 تقول لهم جوزى هذا فقير
 كأنى أضعت لها مالها
 ولا والنبي لا أخاف أباهها
 ولا عمها ، لا ، ولا خالها
 ولو كانوا ناسا من اللى فى بالى
 لما سمعوا قط أقوالها
 دى جارتها زعلت زوجها
 فجاب العصاية وأدَّى لها

وقد عميتُ بعد ما ساها
وشافت من الدنيا أهوالها
فإن عملتُ مثلها زوجتي
فإخْصُ عليها وعُقبى لها
أتدرون ماذا أثار الخناق
فزلزلت الأرض زلزالها
تريد الذهاب معي للتياترو
وتطلب مني إدخالها
وكيف أروح معها التياترو
وإزاي أقبل إرسالها

ومن الشخصيات الفكهة التي ابتكرها شخصية الشاويش شعلان
عبد الموجود، وكان يكتب على لسانه محاضر تحقيق على نحو
ما نعرف في أقسام البوليس، ولكنه كان يخرجها في هذه الصورة
المرحة :

« وفي تاريخه أدناه وأعلاه أنا الشاويش شعلان عبد الموجود
شاويش. آه يا نارى لو أكون بكشاويش. برضه أنا أحسن من
بكشاويش وملاحظ كمان ، وأنا جاعد في الجسم حضر جدامى
عسكرى بوليس طويل عريض ، لو يجع على حيط يهزه. وبعد
ماأخذ لى التعظيم اللازم سعلته (سألته) خبرك آه؟ جال: «يا
أفندم أنا أخش الحرب وأرمى روحي فى النار وفى البحر ولا أخافش

من مخلوج ولو كان الجن ، لكن أخاف من ربنا جوى ولا أجدرش
على غضب ربنا . وحضرة بكشاویش النظام باعتنى فى النجطة اللى
جُذِّام ديوان المالية ، والنجطة دى يا افندم واجف فيها راجل
مسخوط على حجر على . والمسخوط ده لو ما ربنا غضبان عليه ما
كانش سخطه . وأنا ماجادرش أجف حياهه وغضب ربنا نازل عليه
يا افندم واللعنة لما بتنزل بتعم والعود بالله . فأنا المذكور أدناه يا
افندم أعرض لمسامع حضرة سعادة الحكومة أنها تشيلنى وتودينى
نجطة غير دى ، شالله فى آخر الدنيا ، بس مايكونش فيها
مسخوط ، وأنا يا افندم مصلى الخمس ، وأخاف من غضب الله .
ومن الأبواب التى عقدها حسين شفيق فى المجلة باب محكمتنا
العرفية ، وكان ينشر فيها محاكمات مضحكة على نحو ما نرى فى
هذه المحاكمة لمدير شركة الترام :

رئيس المحكمة : اسمك ايه ؟ .

المدير : مدير الترامى

الرئيس : وصنعتك

المدير : بعيد عنك مدير الترامى .

الرئيس : عمرك كم سنة .

المدير : عشرة آلاف قتيل

الرئيس : أنت متهم بإهمال نشأ عنه حوادث دهس كثيرة

المدير : كله بالقضا والقدر

الرئيس : وايه القضا والقدر دول
المدير : يعنى العجلتين اللى فى أول القطار .
الرئيس : فيه شهود كثير بيقلوا إنهم شافوا الترامى بيدهس
الناس

المدير : كداين لو كانوا شافوه كان داسهم .
الرئيس : رجال الإسعاف بيقلوا إن السواقين ييمشوا
بسرعة .

المدير : كداين دول متغاضين عشان بنشغلهم طول النهار .
الرئيس : بتقول أنكم ما بتدهسوش حد ، أمال يتشغلهم فى
ايه «

المدير : بنشيلهم اللى بينداسوا من تلقاء أنفسهم .
الرئيس : تلقاء أنفسهم يعنى إيه ؟
المدير : يعنى الفرامل الخسرانة .

وباب آخر كان يعلق فيه على الحوادث التى تذكرها بعض
الصحف اليومية هذا التعليق المضحك :

« ذكرت جريدة الأهرام أن (وردية) من عسكري وخفيرين
قابلت صيادا فى أثناء مرورها للمحافظة على الأمن ، فاغتصبت منه
ما معه من السمك ثم قبض على الدورية « وعلق حسين شفيق على
الخبر قائلا :

« عندما قبضوا على الدورية التي سرقت السمك ورأى المأمور
العسكري قال له :

- ارم بياضك !

يقول المحقق في محضره إن الجندي الذي كان في الدورية نصفه
عسكري ونصفه سمكة .

وقال أحدهم لوكيل النيابة : إذا كان البوليس يسرق فمن
يحرسنا ؟

فقال له :

- اسم النبي حارسك

لما وصل العسكري الذي سرق السمك إلى غرفة التحقيق
وكيل النيابة شواه .

سألت النيابة العسكري الذي سرق السمك عن اسمه فقال :
- بحرى بحرى .

عندما دعى العسكري الذي سرق السمك إلى غرفة التحقيق
دخل وعلى رقبته « شال » .

وكان في الفكاهة باب عنوانه : « ما قولكم ؟ » وكان يُردُّ فيه
على أسئلة القراء بتوقيع المفتي . فمن ذلك أن شخصا ذكر أنه
أهدى فتاة خاتم الخطبة وبعد أن قبلته أعادته إليه ، وامتنعت عن
مقابلته . فقال له في إجابته : احمد ربنا .

وفقد بصره في أواخر حياته ، فكان يرافقه أحد الشبان من

تلاميذه، ولقيه بعض أصحابه، فلما سأله عن الشاب أجاب :
- ده واحد ساحبنا !

ويمكن أن توجه كلمة ساحبنا على أنها ساحبنا . وكانت حياته كلها على هذه الشاكلة من التندير والفكاهة وما يرافقها من ضحك وهزل ودعابة . وإلى جانب هذه الأبواب الفكاهية في مجلة الفكاهة كان بها بابان يكتبها أيضا حسين شفيق المصرى أحدهما باب (نظرات معتوه) وهو نقد اجتماعى ، وثانيها باب (الشعر المنثور) . وهو نقد أدبى فى قالب تهكمى بأسلوب بعض الأدباء المعاصرين الذين ابتدعوا ما سموه الشعر المنثور

المجالس والمقاهى

كانت المجالس والمقاهى فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن تعد منتديات أدبية ، ولم يكن يخلو مجلس فى القاهرة أو مقهى من مضحك : أديب أو شاعر أو من أبناء الشعب الذين تجرى الفكاهة فى روحهم . وهناك كثيرون اشتهروا بها مثل حسين الترسى وحسن الملا والشيخ حسين زينهم ، وهى لا تزال تملأ ندواتنا ومجالسنا حتى دار الإذاعة نجدها تخصص لها بعض أركانها . ولا بد أن نقف عند ثلاثة كان لهم فيها جولات ومواقف ونوادير يتناقلها المصريون ، وهم محمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم .

محمد البابلى

كان البابلى سريع الخاطر بارع النكتة خفيف الروح ، وتروى

عنه فكاهات كثيرة، فمن ذلك أنه برم يوما بشخص في أحد
 المجالس، فلما جاء شاب هو ابن هذا الذى برم به، أظهر البابلى
 الضجر منه، فسأله من معه لماذا تضجر من هذا الشاب؟ فقال: هو
 ابن الى أم (اللتام). والتورية واضحة. وركبته الديون ورهن أرضه
 فى البنك العقارى، وتصادف أن غنى أمامه صالح عبد الحى أغنيته
 المشهورة: أهل السماح الملاح فىن أراضيههم؟ فقال: فى البنك
 العقارى. والتورية فى أراضيههم على نحو ما فهمها البابلى واضحة.
 وركب مرة مع عبد العزيز البشرى قارباً فى النيل، فظهرت أمارات
 الخوف على البشرى حتى قال له: الحقنى يا بابلى المركب ستغرق
 فالتفت إليه فى هدوء وقال له: يا أخى ما تفرق (لتغرق) هى
 بتاعتنا؟! ويروى أنه كان مسافراً مع صديق، واعترضها سلم
 فصعداه، وبينما هما نازلان رأى البابلى فتاة جميلة، فوقف، وناداه
 صديقه: اسرع يا محمد حتى لا يفوتنا القطار فقال: كيف أستطيع
 النزول وروحى طالعة. ورآه بعض أصدقائه فى رمضان نهراً وهو
 جالس على مقهى يدخن النارجيلة فقال له: لا يصح ولا يليق أن
 تُفطر فى رمضان واسمك كاسم النبى: محمد، فقال على الفور: أنا
 يا أخى من حزب قاطر السموات والأرض. وهى مغالطة واضحة.
 ولما قامت الأحزاب بعد ثورة سنة ١٩١٩ وانقسم الناس إلى وفدين
 برياسة سعد زغلول ودستوريين برياسة عدلى سأله بعض أصدقائه
 قائلاً: يا محمد انت سعدست ولا (أو) عدلست؟ فقال: بل أنا

فلست . وأحيل موظف إلى المعاش فكان يكثر من التردد عليه ،
وضجر منه ، فلم يكده يلم به يوما حتى قال له : قل لى ياأخى هم
أحالوك على المعاش أم حالوك على ؟

الشيخ عبد العزيز البشرى

كان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف لا يقل
عن البابلى خفة روح ورشاقة نكتة ، وتروى عنه فكاهات ونوادير
كثيرة . من ذلك أن رجلا من العوام استوقفه ليقرأ له خطابا
فوجده طويلا ، فقال له إننى لا أعرف القراءة ، فتعجب العالمى ،
وقال له : كيف ذلك وأنت تلبس هذه العمامة الكبيرة ؟ فأمسك
بعمامته ووضعها على رأس الرجل وقال له : اقرأ . ومن نوادره التى
كان يقصها مبتسما على أصحابه أنه ركب يوما عربة (حنطورا)
فسمع شخصا يقول : « ورا يا اسطى ، ورا يا اسطى » وضرب
العربجى بسوطه المتسلق على العربة من خلف . والتفت الشيخ
البشرى وراءه ، فوجد المتسلق هو حافظ إبراهيم ، أما الذى كان
ينادى على العربجى ليضربه ، فهو إمام العبد !

واشتهر الشيخ البشرى بما كتبه فى مجلة السياسة الأسبوعية
تحت عنوان : « فى المرأة » . وكان يختار تحت هذا العنوان شخصية
كبيرة من شخصيات من عاصروه مثل سعد زغلول وعدلى يكن
وزبور وعبد الخالق ثروت ويرسمها (سنتيز) رسما كاريكاتوريا ،

يتلوه الرسم القولى للبشرى .

وهنا نجد أثر الفكاهة الغربية فإن البشرى لم يكتف فى تصويره للأشخاص بتعقب هناتهم وسقطاتهم ، بل ذهب يثقل نفسياتهم ومداخل طباعهم ، يقول : « ولا يذهب عنك أن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور الكاريكاتورى ، فهو إنما يعتمد إلى الموضع الناقى فى خلال المرء ، فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات » . وقد جمع ما كتبه تحت هذا العنوان ونشره فى كتاب معروف . واستمع إليه مثلاً يقول فى الدكتور محبوب ثابت ، وكان سياسياً مشوشاً ، يكثر من الخطب السياسية والأحاديث عن السودان وعن نفسه ورحلاته فى أوروبا وعلمه وأدبه ، يقول فيه : « لا شك أن الدكتور محبوب ثابت يُعَدُّ ، بحق ، فى ميراثنا القومى ولو - لا أذن الله - جرى عليه القدر لكان لابد للأمة من (دكتور محبوب ثابت) بأية طريقة من الطرق . نعم هو فى ميراثنا القومى لا يقل عن آثار سقارة وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء . ولقد أصبح على الزمان جزءاً من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل ووفاء النيل وركبة الرؤية وشم النسيم ! ولما فكر المرحوم محمود (بك) رشاد فى جعل العلم المصرى محلى بصور بعض الآثار القديمة ، فرعونية وإسلامية ، لم ير المصور بدا من أن يرسم بجانب الهرم وأبى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبى السعود صورة الدكتور محبوب ثابت . والدكتور فى المصرين كإنجلترا فى الأمم ،

كل منها يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضى على وجه الأيام ! فإذا كان الكلام في النيل وما عسى أن يحتازه عن مصر خزان مكوار تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين . وإذا كانت الثورة (١٩١٩) تصدر الدكتور لجنة الوفد المركزية ! وكلما انتشرت في البلد مظاهرة كان ناظورتها (المرموق فيها) الدكتور ، وكلما ساروا بضحية حرية كان الدكتور أول المشيعين . فإذا كان اجتماع في الأزهر كان الدكتور فارسه المعلم . وإذا كانت مشاكل العمال أبي الدكتور إلا أن يتفرد بها من دون الناس جميعا ، فانتفض نقيبا لعمال العنابر ولفافي السجاير وسواقى الأوتوموبيلات وشيالى المحطات ونُدل (خدم) الفنادق والقهوات وجميع طائفة المعمار وأصحاب الحوانيت من كل بدال وبقال وجزار وعمال المطابع وكناسى الشوارع وصناع الخيم ومساحي (الجزم) . ولو فكرت طوائف الجرذان والسنانير وجماعات الجعلان والصراصير في أن تتخذ لها نقابات لمثل الدكتور ثابت فيها خطيبا ، ثم استوى لها بفضل الله نقيبا .

« وفي الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولاً عن كل ما في البلد من هابط وصاعد ، وقائم وقاعد ، وغاد ورائح ، وسانح وبارح ، ودارج على متن الغبراء ، وطائر في جو السماء . فإذا كانت هنالك منطقة خارجة عن اختصاص الدكتور محجوب فهي عيادته فقط ! ولا أحسب رجلا في مصر ولا في إنجلترا مشغولا بالسودان شغل

الدكتور ثابت ، فحديث السودان يجرى منه مجرى النفس . وللدكتور في مشكلة السودان نظرية طريفة جدا ، فإنه كان يرى أن كل العقدة فيها إنما هي في إقناع المصريين وخدمهم بقبوله ، فهو كلما رأى رجلا أو امرأة أو صبيا أو وليدا أقبل عليه يقنعه في قوة وحماسة بقبول السودان ، ويظهر أن الدكتور ظن بعد لأى أن المصريين غير مقتنعين بضرورة السودان ، فشخص إلى سوريا ليقنع أهلها بضرورة السودان للمصريين ! فقد بلغنى أن ذلك كان حديث الدكتور هنالك في مسائه وصباحه ، وغدوه ورواحه ، وموضوع مفاكاته وأسماره ، في مقامه وتسياره .

« حقا هذا الرجل أمة وحده وإنه لعبرى لا يتدلى إلى منطق الناس وأسباب تصوره فإن له قياسه وتقديره ، وله منطق وتفكيره ، وله أسلوبه وتدييره . وأظهر صفاته في هذا الباب أنه لا يحفل بما يسمونه الواقع كثيرا ولا قليلا ، فحسبه أن يشتهى الأمر فيقدره واقعا ، أمكن ذلك الأمر أو استحال ، ومثله من تخيل ثم خال . ولقد كان في سنة ١٩٢١ يسعى جاهدا في أن ينتظم عضوا في الوفد المصرى ، وقد وسوس له شيطان من الإنس بأن عدلى (باشا) فكر في تعيينه مستشارا في الوفد الرسمى لولا أن انتهى إليه أن سعد (باشا) سيلحقه بالوفد المصرى ؛ فكان جوابه على الفور : « مافيش مانع ياسيدى » . وهكذا طمع الدكتور في أن يكون عضوا في الوفدين المتقاتلين معا ، سنة ١٩٢١ . وأذن الله ، ودخل

الدكتور في الوفد المصرى طبعة الثالثة أو رابعة بعدما عصفت القوة بجلّة رجاله سنة ١٩٢٢ ، ثم بدا له لأمر ما ان « يسلحه » فكانت تخرج النداءات والمنشورات ممهورة بتوقعيات رجال الوفد وليس اسم الدكتور فيها ، والدكتور مصمم على أنه ما برح عضوا في الوفد يلتمس لعضويته المعاذير بأنه ربما دُعى للتوقيع فغاب ، أو أرسل إليه فلم يبلغ الكتاب . والدكتور محجوب ثابت عريض الألواح بعيد مدى العظام لولا أن في جسمه رَهْلا (استرخاء) ، أميل إلى الطول ، فإذا مشى خلته أحذب وما به حذبة ، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل السنين ، عريض الجبهة إلا أن أسفل وجهه أعرض من أعلاه . يرسل سبّكته وعُثنونه وشعر عارضيه في هيئة لطيفة مقبولة ، وله عينان رقيقتان ترسم في بياض كل منها دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى إلى إنسانها ، وهما دائمتا الحركة والاختلاج . وهو بعد طيب القلب ، مكفوف الأذى ، عذب الروح ، حلو الحديث ، ضحوك السن ، يتحرى في قوله غريب اللغة ، ويلتمس الشاهد من مآثور شعر العرب ، وقد يجئ به أحيانا مكسورا غير متزن . أما قافاته فحدث عنها ولا حرج . جزت مرة بداره فرأيت فتاتين صغيرتين تتلاعبان ، فقالت إحداها للآخرى : هذا بيت الدكتور ؟ فسألته ومن الدكتور ؟ فقالت لها ألا تعرفين الدكتور الذى يقول : يابنت هاتى القبرة (الإبرة) ؟

« ومن أخص صفات الدكتور محجوب ثابت أنه لا يكاد يشعر

بمرور الزمن ، وإذا كان من آية يوشع أن الشمس رجعت له مرة فإن من آية الدكتور عند نفسه أن الشمس تثبت له موضعها على طول الزمان ، فأنت إذا دعوته ليتناول الغذاء معك أقبل عليك في الساعة الخامسة بعد الظهر حتما في غير ورع ولا اعتذار ، ولقد دعاه صديق لى وله لتناول الإفطار في رمضان ، ولبثنا ننتظره برهة ، فلما أيسنا منه أفطرنا ، وفي نحو الساعة الحادية عشرة أقبل الدكتور مشمرا للفظور .

وبما يذكر للدكتور في هذا الباب أنه ما أدرك قط القطار الذى يعتزم السفر فيه حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه إذا آذنههم بالسفر إلى بور سعيد في قطار الساعة السابعة صباحا شخصوا إلى المحطة لتوديعه في قطار الساعة الحادية عشرة ، وإذا آذنههم بالسفر إلى الإسكندرية في القطار المفتخر كانوا بوداعه الساعة السابعة مساء . وهو لا يتعمل للدرهم ولا يجرى وراءه ، أما إذا سقط الدرهم في جيبه فلا إلى رُجعى ، فمثله في ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفار ، فإذا سقط فيها الفار فهيئات ، ليس له منها فرار . وله في هذا الباب أحاديث مذكورة وأفاكيه منشورة . وبعد فالدكتور محبوب ثابت أمة وحده بما اجتمع له من الصفات ، وما احتشد لديه من فنون المعلومات وما تكدس عليه من ألوان التبعات . وإنى لأقترح على الحكومة أن تصدر قرارا بنزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة ، ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار

الآثار ، حتى يظل رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الأعصار » .

وواضح أن الشيخ البشرى يستعين في رسمه للدكتور محبوب ثابت بالمبالغة من جهة واستخدام المفارقات من جهة ثانية مع العناية ببيان النفسية والطبع والمزاج . وبلغ من ذلك كله الغاية في رسم شخصياته المختلفة مع العناية التامة بلغته . وكان يكتب في مجالات أخرى غير السياسة الأسبوعية مثل المصور والثقافة ، وكان يذيع على الناس أحاديث في الإذاعة ، وكلها تطبعها هذه الروح الفكاهة . وفي كتابه « قطوف » تحف من ذلك كثيرة .

ومن يرجع الى هذا الكتاب « قطوف » وهو مطبوع في جزنين ، يبصر الى أى حد كان البشرى كاتباً فكها . فقد كان يعرف كيف يستخرج الفكاهة من كل إنسان ومن كل جانب من جوانب حياتنا المصرية التي شاهدها تحت بصره .

وقد عمد كثيراً إلى الموازنة بين ما كنا عليه في أواخر القرن الماضي وما صرنا إليه في هذا القرن ، من عادات قديمة أو مستحدثة ، ولا تقرأ ذلك عنده حتى تبتسم وقد تضحك ، إذ كان يعرف بأسلوبه في المزاح كيف يعرض الحق الصريح ، فإذا هو مشحون بالسخرية والفكاهة . ومن طرائفه في ذلك فصل كتبه بعنوان « كيف كان الشباب يزوجون » .

وكان يعرف كيف يعرض حاضرا عرضا فكها أيضا ، وخاصة ما اتصل منه باستخدامنا لبعض آلات المدنية الحديثة ووسائلها ، حتى لتتحول إلى ما يشبه فرجة أو تسلية أو عذابا وبلاء . وقرأ ما يقوله من فصل عن التليفون :

« التليفون ، عصمك الله من كل مكروه ، كما تعرف أداة سريعة للتخاطب سواء في قضاء الحوائج أو في دفع الكوارث أو في الاستنجاد في الأحداث أو نحو ذلك . على أن الكثيرين منا نحن المصريين والسيدات على وجه خاص لا يفرضون له ذلك البتة ، بل إن بعضهم وبعضهن ينظمونه في جملة الآلات الموسيقية كالعود والقانون ، والبيان كما دعاه المجمع اللغوي ، والكمان مثلا . فإذا أنعم الله على سيد أو سيدة من هؤلاء بالتليفون في دار صديق أو غير صديق جعل يتحدث ويتحدث مايكل ولا يمل ولا يتعب ولا ينصب ، ولا تقفه شهقة ، ولا يختلج له فك ، ولا ينقطع له نفس ، بل لعله في لذته واستمتاعه أمرح من مستمع إلى عود حاذق أو قانون ضارب محسن . ومما حدثني به الثقة الصادق أن سيدة من صديقات أسرته تختلف إليها للزيارة في أكثر الأيام ، وما بلغت الدار قط إلا عدلت من فورها إلى التليفون ، فتكلمت ، ثم تكلمت ، حتى إذا أذن الله للكلام بختام رفعت السماعة ثانيا وافتتحت مع آخرين حديثا آخر ، وهكذا حتى إذا تمت لها ثمانية أحاديث أو عشرة قامت فجلست إلى صاحبات الدار ، وما أن تفرغ من شرب القهوة بعد

السلام وبث الأشواق وما إلى ذلك حتى تهرع إلى التليفون أيضاً ، فتعيد ما بدأت وتستأنف من الأحاديث ما قطعت ، وهكذا . قال صاحبي : ولقد أقبلت هذه السيدة ذات يوم وأنا جالس في غرفة قريبة من آلة التليفون بحيث أسمع برغمي الحديث في يسر ، فأنا أشد الناس كراهة للتسمع على الناس ، ورحت أعد « النمر » التي تطلبها ، فإذا هي ست عشرة قد استهلكت جملة الأحاديث فيها ما يقرب من الساعتين ، وإني أستطيع مطمئنا على ديني وضميري أن أحلف لك بكل ما يحلف به البار والفاجر على أنه ما سقطت إلى أذني من كل ذلك كلمة واحدة تدعو إليها ضرورة أو تبعثها حاجة أو تنفع في أي شيء أو تضر في أي شيء أو يترتب عليها في يوم من الأيام أي شيء .

« وحدثني صديق من الظرفاء قال : كنت جالسا في مقهى (كذا) وكان ذلك في شهر يولية . وكان اليوم شديد الحر ، وبدا لي أن أتحدث في التليفون إلى صديق في شأن عاجل ، فإذا مقصورة التليفون مشغولة برجل يتحدث جاهدا وهز رأسه هزا عنيفا ، كأنما يوقع به على نبر الكلام أو يمسك « الواحدة » على حد تعبير أصحاب الموسيقى . وانتظرت طويلا لعله ينتهي ، فلم ينته . فعدت إلى مجلسي حتى مضت نصف ساعة أيضا ، ثم نهضت ، فنقرت له على الزجاج ، أتعجله ، فالتفت إليّ ، وإن كان فمه لم يلتفت ، وجمع أطراف أنامله وأشار إلى بالتمهل ، فأمهله ، حتى سمعته يحكي

صاحبه تحية الختام ، ثم أفرغنى أنه استأنف الحديث فقال لصاحبه : « إلاً قل لى » . ويمتد الحديث شوطاً آخر ، فإذا أذن الله وسمعت منه « نهارك سعيد بقى » مثلاً ، فتنفست الصعداء كما يقولون ، عاد فقال : « لكن ماقلتليش على كذا » . وهكذا ، حتى كدت أخرج من جلدى . ولم يفظنى أكثر من أن أسمعه يقول فى وداعه لمحادثة : « بكره إن شاء الله نتقابل فى محل كذا » فاقترحت عليه المقصورة وقلت له : « يا أخى لقد سرقك الكلام فقد صرنا بعد بكره » « ولا تظن أن هذا الرجل وتلك السيدة من الشواذ فينا نحن المصريين ، وأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الإطالة التليفونية قد تجر أحياناً إلى أخطار ، بل لقد تجر إلى أشد الأخطار ، فلقد يطلبك قريب أو صديق أو أى إنسان بينك وبينه عمل ، ليحدثك فى أمر عاجل ، فلا يصل إليك ، حتى يفوت الوقت وتفلت الفرصة ، وتضيع المنفعة ، وتقع المضرة . ولقد يندق جرس التليفون فى الصباح الباكر وأهل الدار نيام فى السادسة إذا كان الوقت شتاء ، وفى الخامسة إذا كان صيفاً ، فيهبون مذعورين ، وقد وجفت قلوبهم وزاغت أبصارهم وتلاحقت أنفاسهم ، لأن التليفون فى مثل هذه الساعة لا يمكن أن يفضى بخير ، بل قل أن يفضى فيها إلا بالشر الكبير ، والعياذ بالله . ويتقدم أشجع أهل الدار ويتناول السماعة بيد مرتعشة ويقف سائرهم وقفة منتظري الحكم فى الجنايات الخطيرة . ثم إذا هم يسمعون : « لا ، النمرة غلط » . فينصرف كل منهم إلى سريره

أو إلى بعض شأنه ، ما يتكلمون ، فقد عقد الذعر ألسنتهم فما يقوى أحد منهم على الكلام . وكل ذلك لأن البارد السمع الذى يطلب التليفون فى هذا الوقت لا يحشم نفسه التحرى عن الرقم المطلوب ، فيكفى الآمنين كل هذا البلاء . ولقد يدق جرس التليفون ، فتجيبه ، فيجرى الحديث هكذا :

- أنت سى عطوة

- لا

- إمال إنت مين

- أنا مش سى عطوة وبس

- طيب ما تقول إنت مين

- يا أخى ! أنا لست سى عطوة الذى تطلبه وكفى

- ده مش محل فلان ؟ (ويعين متجرا أو مصنعا)

- لا ياسيدى ! هذا منزل

- منزل مين

- منزل لا شأن لك به ياسيدى

- أما شىء بارد ، أما ابن ... صحيح ! ويسرع إلى قطع

الحديث . والحمد لله .

» ولقد يطلبك الطالب ، فيسألك : أنت فلان ، فإذا سأله اسمه أبى أن يجيبك ، أو تبدأ أنت أولا بالجواب عما سأل . وتراجعه فى هذا ، فيلح ويأبى ، والعرف واللياقة يقضيان بأن يفضى باسمه هو

أولا ، ليدع لك الخيار في حديثه أو الانصراف عنه . ومما يتصل بهذا المعنى أن يطلبك طالب ، فإذا سأله الخادم عن اسمه كان جوابه : « بس قل له واحد عايزك » ولا يأذن باسمه أبدا .

ومما يتظرف به الكثير أن يطلبك وقد تكون مشغولا جدا ، فإذا استوثق من شخصك بدأك بالتحية ، فتحييه بأحسن منها أو مثلها . ثم يكررها على ألوان وصور شتى . ولا يسعك إلا أن ترد عليه التحية بالتحية ، ثم لا يلبث أن يفاجئك بهذا السؤال :

- طيب أنا مين .

- ياسيدى ! قل لى حضرتك مين .

- بقى مش عارف أنا مين .

- بماذا تأمر ياسيدى .

- لازم تقول لى أولا أنا مين .

- لعل خلا فى أسلاك التليفون يغير من صوتك ، فاعمل

معروف وقل لى مين أنت ؟

- طيب افكر كده .

« ولا يزال يلون لك هذا العذاب أو تجربته من هو ، أو بعبارة أخرى . لتلقنه اسمه ، وتقدم إليه شخصيته ، وتعرفه نفسه . وكيفما كان الحال فقد أضاع وقتك ، وأثار أعصابك ، وأحبط سعيك ، وحال بينك وبين معاودة عملك . وهكذا يكون التظرف وكذلك يكون الظرفاء . وبعد فإذا كان لى أن أسأل الله لمجموعنا شيئا فإنى أسأله

أن يعلمنا كيف نلتزم في التليفون القصد والدقة وأدب الكلام،
وما ذلك على الله بعزیز»

والشيخ عبد العزيز البشري في هذه الصورة القلمية لآلة التليفون
ومضايقاتها مصور ماهر ، يعرف كيف يصوب فكاهته وسخريته إلى
نقط الضعف في عاداتنا ، فإذا هي تبرز يروزها في الصور
الكاريكاتورية . والطريف أنه يسوق إليك ذلك في أسلوب يختلط
فيه الجد بالمزاح واللذع . ومن هنا تأتي المفارقة التي تثير فيك
السخرية . ولم يكن ينقصه شيء كي يحسن هذا الأسلوب الفكه ،
فقد كان فطنا حاضر البديهة سريع الجواب ، وكانت فيه دقة حسن
شديدة ، فلا يلم بشيء إلا استقصاه من أطرافه ، واستخرج منه
فكاهاته .

ولا يكتفى البشري في كتاباته بما يروى من نواته ، فقد يروى
نواتر عن غيره تفكهة لقارته كهذه النادرة التي رواها عن صديقه
حافظ إبراهيم :

« قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور
(الكبارى) كان الناس يتخذون الفلك (المعديّة) في طلبهم
الشاطئ من الشاطئ . وجاء رجل من القاهرة ليعبر إلى الروضة من
ساحل فم الخليج ، وكان الليل قد تقدم . فوجد ملاحين يغطان في
نوم ثقيل من تعب الليل وكدّ النهار ، فما زال بهما حتى بعثهما ، ونهض
أحدهما إلى موضع المجاذيف ، وتولى الثاني الدفة . وأنشأ صاحب

المجازيف يضرب بمجذافيه سطح الماء . على أنه ما كاد يفعل مرتين أو ثلاثا حتى أحس شدة جفاف الحلق من أثر العطش ، فتناول الكوز ، ولم يكن يعرف أن زميله كان قد أذاب فيه ملحاً ليعالج به أذنه ، واغترف به من النهر غرفة ، وشرب من الماء ، فإذا هو ملح أجاج ، فصاح من فوره بزميله صاحب الدقة ، وكأنه لا يزال نائماً يحلم :

- يا ريس عويس !

- هو !

- إيدك .. دخلنا المالح «

والحق أن البشرى كان يحسن صناعة الفكاهة قولاً وكتابة غاية الإحسان ، من كل شكل ومن كل لون لذعاً ومزاحاً ودعابة .

حافظ إبراهيم

ربما كان حافظ أهم من عاصروا الشيخ البشرى سرعة خاطر وحضور بديهية ، يُروى عنه أنه كان يلبس بدلة لا يغيرها فقال له أحد أصدقائه لماذا لا تغير هذه البدلة ، فأجاب على الفور لأن فيها صفتين عزيزتين : القدم والوحدانية ، يريد أنه لا يملك سواها . ودعى على مائدة بعض الأثرياء مع صاحبه البشرى وكان الطعام سمكاً ، فلاحظ أن البشرى يأكل وليس أمامه شوك متبق مما يأكله ، وكانت الفكاهة عنبا بناتياً ، فتعجب حافظ ، وسأله : أتبلع

الشوك أو أن أمامك سمكا بناتيا لا شوك فيه ؟ . ومرض أحد أصدقائه وعرف أن عنده المصران الأعور ، وهو عادة في الجانب الأيمن ، وحدث أن جانبه الأيسر آلمه بعد زيارته ، فتمارض وظن أنه مريض بالمصران الأعور ، فقال له بعض أصدقائه إن المصران لا يكون في الجانب الأيمن ، فقال له : ربما يكون أعور شمال يا أخى !

وكان صديقا لإمام العبد الشاعر السوداني ، وكانت في إمام دعاية ، فمن ذلك أنه تأخر في إحدى سهراته ، وكان بيته بعيدا فنادى على عربجى ليوصله ، وركب ، وحينما قرب من المنزل أخرج رأسه وقال (للعربجى) قف ، سيدى نزل . وكان يتيه على حافظ مع كثرة ما يستولى عليه من نقوده ، وكان يقول لأصدقائه : لولاي ما عرف حافظا أحد ، فأنا الذى خلقتة ، وبلغ ذلك حافظا ، فأسرّها في نفسه حتى دنا منه يوما وسأله بعض النقود ، فقال له : أنا يامولاي كما خلقتنى . وتصادف أن غاب إمام عن مجالسه ، فذهب يزوره ، ثم رجع يقول لأصدقائه إن بيت إمام ضيق جدا ، وقد سمعت أن خفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عن المرور وينادى : يا إمام رجلك طالعة من الشباك ، يا أخى مش ضرورى تنام متمدّد . وذهبا مرة للاصطياف معا في الإسكندرية ونزل إمام العبد البحر فلما خرج منه قال له حافظ : أهو أنت الآن سودانى ومملح . ولبس إمام يوما رباطا للرقبة أسود فلما رآه حافظ

قال له : زَرَّرَ القميص . وكان إمام يكتب ذات يوم فوقعت نقطة
حبر أسود على الورقة التي يكتب فيها وهو غير ملتفت ، فقال له
حافظ : نَشَفُ عرقك . وكانا يسيران في بعض الأيام واتفق أن مرّا
أمام منزل أنيق ورأى حافظ بابه يفتح ، وخرجت منه سيدة جميلة ،
فوقف ينظر إليها وفجأة قَبَّلَ إمام العبد ، فسأله ما هذا يا حافظ ؟
فقال له : أَقْبَلُ الأرض بين يديها ، وأشار إلى السيدة .

ولم تكن في حافظ هذه النكتة الباردة فحسب ، بل كان معها
حلو المعشر فكه الحديث ، يعرف كيف يروى النوادر والأخبار ،
فكان كبار المصريين يتلقفونه في مجالسهم ، ومن كان يعجب به
وبحديثه إعجابا شديدا سعد زغلول زعيم الأمة ، وكان يدعو
لزيارته في مصطافه بمسجد وصيف كما كان يدعو أعجوبة العصر
محجوب ثابت فكانا يتراشقان بالنوادر .

ومن طريف ما يروى أن « الدكتور محجوب » كان مع حافظ
ابراهيم وبعض صحبه في ضيافة سعد زغلول في مسجد وصيف ،
وذات يوم أصبح الدكتور محجوب يروى لهم حلما رآه في النوم ،
فسأله سعد عن الحلم ، فقال رأيتني راكبا جملا كبيرا ، ومن خلفه
عدد كبير من الحمير ثم جاءني رجل ومعه رسالة من كبير ، فسلمني
إياها . فنظر سعد إلى حافظ وقال له : « فَسِّرْ لنا هذا الحلم
ياحافظ » فقال : أما الجمل الذي يركبه الدكتور محجوب فهو
كرسى النيابة ، وأما الرسالة ، فهي تكليف من أولى الأمر لمحجوب

بتولى وزارة الصحة ، وكان الدكتور محبوب يبنى نفسه بهذه الوزارة . ثم قال حافظ : « أما الحمير فهم هؤلاء الذين انتخبوه فى مجلس النواب » !

وقد نظم حافظ فى وصف محبوب ثابت قصيدة فكهة طويلة ، وهى مثبتة فى ديوانه وفيها يقول مشيرا إلى هذا الحلم وما عرف به فى كلامه من تمسكه بالقاف ، يلوكها لو كا ، وكثرة حديثه عن السودان وغير السودان :

قصف المدافع فى أفق البساتين	يُرغى ويُزبد بالقافات تحسبها
من مارج النار تصوير الشياطين	من كل قاف كأن الله صورها
واختص سبحانه بالكاف والنون	قد خصه الله بالقافات يعلكها
حيناً فيخلط مختلاً بموزون	يغيب عنه الحجا حيناً ويحضره
من (كردفان) إلى أعلى فلسطين	لا يأمن السامع المسكين وثبته
إذا به يتحدثى القوم فى الصّين	بيناتراه ينادى الناس فى (حلب)
لكنها عبقریات الأساطين	ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل
تغنى تفاسيرها عن ابن سيرين	يبیت ينسج أحلاما مذهبة
يصرف الأمر فى كل الدواوين	طورا وزيرا مشاعا فى وزارته
حسنا تملك آلاف الفدادين	وتارة زوج عَطُولٍ خَدْلجة
وما أظلت من دنيا ومن دين	يُعفى من المهر إكراما للحيته

وكان محبوب ثابت يبنى نفسه الى جانب وزارة الصحة بزواج فتاة جميلة أو عطول خدلجة كما قال حافظ ويطلب أن تكون ثرية

تملك آلاف الفدادين

وفي ديوان حافظ فكاهات ومداعبات مع الباهلي وغيره من أصدقائه . ويروى أنه رأى رجلاً بطينا عظيم الكرش فقال له مداعبا : ما أراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجل ، فأجابه نعم ، فقال حافظ : ظاهر لقد حملت عنها حملها ، وتلك غاية ما بعدها غاية في المطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل أو بين الجنسين . ومر يوما على رجل يبيع مراوح ، فسأله عن ثمنها فقدم له مروحة ، وقال له : هذه بقرش واحد ، ثم قدم له أخرى مثلها وقال له : وتلك بقرشين ، ونظر حافظ في المروحتين وقلبهما ، ولم يجد فرقا بينهما ، فقال له : أهذه تأتي بهواء بحرى والأخرى تأتي بهواء قبلى ؟!

ودعا جماعة من أصحابه إلى طعام ، وجاءوا معهم بصديق لهم لم يكن يعرفه ، ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل ، فقال له : ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت حقا من المدعوين ، هلا ذكرت أنك مدعو من باطن مدعو ، ثم قال له : يا أخى إنك تشبه الخزانة التي بها درج سرى !. ودُعى مع جماعة على طعام ، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظا ، فقال للمضيف : ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة ، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى . وكتب الدكتور هيكل مقالا عنه وعن شوقى بعنوان شوقى وحافظ ، وبلغه أن شوقى غضب لذكره معه في مقال واحد ، وكان

يرى نفسه فوقه فى الشعر ، فقال لماذا يغضب ؟ أما سمع الناس يقولون : « زفتى وميت غمر » فهل غضبت من ذلك زفتى أو غضبت ميت غمر ؟ وهم أيضا يقولون : « سميّط وجبنة » و « خيار وفاقوس » و « عسل وبصل » . وكان لا يلبث أن يعقب على ذلك بقوله ضاحكا : « أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى »

شوقى ومحجوب ثابت

لم يكن شوقى مشهورا بالدعابة أو النكتة على نحو ما كان حافظ إبراهيم معاصره ، ومع ذلك ففى ديوانه بعض دعايات لعل أطرفها ما ساقه مداعبا به محجوب ثابت . وكان شخصية فذة كما مر بنا فى وصف البشرى وحافظ له ، ومعروف أنه كان من خطباء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وعُرف بحصان كان يركبه فى غدوّه ورواحه ، وأطلق بعض أصدقائه على هذا الحصان اسم « مكسوينى » وهو اسم بطل أيرلندى انتحر جوعا ، يكون بذلك عن هزال الحصان وجوعه . واستبدل محجوب ثابت بالحصان سيارة فقال شوقى مداعبا لمحجوب :

لکم فى الخطّ سياره	حديثُ الجار والجاره
إذا حركتها مالت	على الجنين مُنْهَارَه
وقد تَحْرُنْ أحيانا	وتمشى وحدها تاره

ولا تُشبعها عينُ	من (البنزين) فواره
ولا تَرَوِى من الزيت	وإن عامتْ به الفاره
ترى الشارع في دُعرٍ	إذا لاحتْ من الحاره
وصَبَّيانا يَضْجُونُ	كما يلقون طياره
وفي مَقْدَمها بوق	وفي المؤخر زماره
وقد تمشى متى شاءت	وقد ترجع مختاره
قضى الله على السوا	ق أن يجعلها داره

أدنيا الخيل يا (مكسى)	كدنيا الناس غدَّاره
فصبرا يافتي الخيل	فنفس الحر صَبَّاره
أحقُّ أن (محبوبا)	سلا عنك بفَخَّاره
ولم يعرف لك الفضل	ولا قَدَّر آثاره
ولا والله ماكلَّف	ت (محبوبا) ولا (باره)
فلا البرسيم تَدْرِيه	ولا تعرف نُوارَه

وهى قصيدة طويلة كلها على هذا النحو من الدعاية ، ومن طريف ما داعبه به وصفه لبراغيث عيادته على هذا النحو :

براغيث (محبوب) لم أنسها	ولم أنس ما طَعِمْتُ من دمي
تشقَّ خراطيمُها جُورِي	وتنفذ في اللحم والأعظم
ترحب بالضيف فوق الطريق	فباب العيادة والسلم

قد انتثرتُ جوقهُ جوقهُ كما رُشتُ الأرضَ بالسَّمسمِ
وتبصرها حول (بيبا) الرئيسِ وفي شاريه وحول الفمِ
وبين حفايرِ أسنانه مع السُّوسِ في طلبِ المطعمِ

ولشوقي دعاية كتبها على لسان الدكتور محجوب ، يعلن فيها
غضبه على سليمان فوزي صاحب مجلة الكشكول وكان يكثر من
هجائه والتندير عليه وعلى حصانه وحتى بعد موته . وكان شوقي
يحاول أحيانا الصلح بينهما إذا التقيا في مجلسه ، فيأبى محجوب
قائلا : « يشتمني في زفة ويصالحني في عطفة » . فنظم شوقي هذه
الدعاية على لسان محجوب ، وفيها يقول :

يمينا بالطلاق وبالعِناقِ وبالدنيا المعلقة المذاقِ
وكلُّ فُقارةٍ مِنْ ظَهْر (مكسى)
وتربته وكل الخير فيها بصحراء الإمام وعظم ساقِ
وبالخطب الطوال وما حوته ونسبته الشريفة للبراقِ
وكسرى الشعر إن أنشدت شعرا وإن لم يبق في الأذهان باقِ
أيشتمنى سليمان بنُ فوزي ونطقي القاف واسعة النطاقِ
وتحت يدي من العمال جمعُ (وبيبي) في يدي ومعى (طباقي)
ولسنا في البيان إذا جرينا يشمر ذيله عند التلاقِ
تُقاى ذقنه من غير بيّضٍ لأبعد غايةٍ فرَسَى سباقِ
وتحلاق اللّحى ما كان رأى ولى ذقنُ تبيض ولا تقاى
ولا قصُ الشوارب من خلاقِ

ألا طُرَّ على القهَّور طز وأن أبدى مجاملة الرفاق
بقارعة الطريق ينال مني ويوسعي عناقا في الرُّفاق
وليس من الغريب سوادُ حظي وبالسودان قد طال التصاقي
ألم ير أنني أعرضت عنه وصار لغير طلعتة اشتياقي
وسبحان المفرِّق : حظ قومٍ قناطرٌ وأقوامٍ أواقِي
وعيشٌ كالزواج على غرام وعيشٌ مثل كارثة الطلاق

القاهرة وأبناء البلد

هذه الروح الفكهة نجد آثارها على لسان جميع المصريين في
مجمعاتهم ونوادبهم ومقاهيهم ، ولئن يشتهر بها بينهم مقام ملحوظ ،
وقد وصف قاسم أمين أحدهم ، فقال :

« رجل خفيف ولطيف ، لا تغيب البشاشة عن وجهه ، ولم يره
أحد قط غير مبتسم ، إذا قال لك نهارك سعيد ضحك ، وإذا أخبرته
أن الهواء طيب ضحك ، وإذا سمع أن زيدا مات ضحك ، زينة
المجالس وأنيس النوادي ، يرى نفسه مكلفا بوظيفة السرور فيها ،
ومنوطا بنشر التفریح حوله . يستخدم كل شيء لتسلية نفسه
وأصحابه ، فيجد في أهم الحوادث موضوعا للتكيت وفي أحسن
الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك في أشرف الأعمال فلا بد
أن يفتش فيها عن الجهة التي يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها
أضحكة للناس . »

وهذه الروح أكثر ما تشيع في أهل القاهرة ، فهي أكثر مدن مصر ميلا للضحك والتندر ، وكثيرا ما يطلقون على من يشتهر بذلك فيهم « ابن بلد » يعنون بذلك رفته وحسن ذوقه ومعرفته لمناحي الكلام وما يطوى في ذلك من ظرف ولباقة .

ولأبناء البلد هؤلاء طرق مختلفة في التنكيت ، ومن أشهرها القافية ، إذ يدعى اثنان للمبارزة الفكهة في موضوع بعينه ، ويبدأ أولهما فيذكر شيئا ، ويقول الثاني : إسمعنا « إيش معنى ؟ » أى لماذا فيجيبه الآخر إجابة مسكتة ضاحكة .

وهناك ضرب آخر من النكت يقوم على « القفش » إذ يعلقون على أى موضوع بالنكتة . وتستغل هذا المعين صحافتنا الحاضرة ، كالنكت عن ثرى الحرب والجيل الحديث والتسعيرة والحماة والزوج والزوجة وبنت الذوات ورفيعة هانم . وليست هناك حادثة تمر دون أن تستخرج منها النكتة ، وكأن الصحافة المصرية تستمد في ذلك كله من نبع لا ينضب ، وهى تضيف إليه صورها الكاريكاتورية على نحو ما نقرأ في الأخبار والأهرام والمصور .

في الأزجال

وقد شاعت الأزجال في عصرنا الحديث ، وكان طبيعيا أن تعمها روح الفكاهة لأنها تكتب بلغة الشعب وتعبر عن حياته تعبيرا ليس فيه تكلف ، ومر بنا بعض أزجال للشيوخ محمد النجار وفيها نقد

فكه ، فيه شيء من المرارة ، لبعض جوانب حياتنا . وخلفه كثير من
الزجالين ساروا في نفس الدرب الذى سلكه ، ومن أشهرهم الشيخ
عبد الله هلبها والشيخ أحمد القوصى وعزت صقر والشيخ يونس
القاضى وحسين الحلبي وحسين مظلوم ومحمود رمزى تنظيم ، وبديع
خيرى وله تمثيلات فكهة مثلها نجيب الريحانى ، ونسوق قطعة من
زجل طريف له ، ينتقد فيه طمع الآباء إذ يزوجون فتياتهم من
الطاعنين فى السن ، لثرائهم ، حتى لو كانوا من الريف ، يقول :

هناك فى شارع مراسينه نصبوا الزينه

ليلة جواز بيت أمينه

بالشيخ منوفى أبو خلاف

وأمينه كانت تلميذه لده وجيزه

حبوبة رؤيتها لذيده

دمها ما تقولش خشاف

والشيخ منوفى بلغ ثمانين من عمره الطين

لكن بقا حواليه فدادين

وبيت فى عطفة أم لحاف

والقرش فى الدنيا صياد غياظ كياد

يصبح الخدام أسياد

ويشقلب الحال خلف خلاف

أبو أمينه لقي لقيَّه لُقْطه غنيَّه
صرف النظر بالكلية
عن صدغ يشبه صدغ الثور

وعينين مدغششه طلسمها كتر عماصها
وأسنان صناعي مرصَّصها
حكيم غشيم في حنك مهجور

فاكر أبوها كمان سنتين سي عريس البين
يتوفى ويسيب القرشين
يورثهم الصهر الطرطور

ماخطرشي الاهيل على باله قول أمثاله
يا واخذ القرد لماله
المال مزعزع مش مضمون
تلقاه مادام تستناله الفنا جاله
والقرد فاضل على حاله
ما ينوبك إلا السحنة الدون

واهو الجواز عندنا بلوه بيعه وشروه
هم البنات دول أبو فروة
والآ بضايع بالنولون

بيرم التونسي

ولا نبالغ إذا قلنا أن بيرم التونسي كان أبرع الزجالين
المعاصرين وأكثرهم حبا وقربا من القراء وكان لا يبارى في الوقوع
على المآخذ والعيوب الاجتماعية مع التصوير الفكه والروح العذبة
والإتيان بالكلمة الساخرة والأخرى المضحكة. ومن أزجاله
المشهورة زجله في العيون وأصنافها :

من العيون ياسلام سلم شوف واتعلم
تحت البراقع تتكلم والدنيا نهار

عيون تقول لك قصدك إيه بتبخلق ليه
ما لكش شغل تعس عليه ياراجل ياحمار

وعيون تقول لك أنا عارفاك والنبى ما انساك
من يوم ما شوفتك م الشباك ياجدع ياصفار

وعيون تقول لك روح يارذيل يابو دم تقيل
يا باى ا كبه فى المخاليل ياما هم كتار

وعيون تقو لك أنا حبيت
وعيون تقول ان شالله ما جيت
ياللابنا ع البيت
أنا رايحه الزار

وعيون تقول لك بالمحسوس
وان شالله حتى تحوس وتدوس
أنا عايزه فلوس
أنا عاملاه كار

وعيون تقول لك امشى ياواد
وعيون تقول لك عندى معاد
أنا أم أولاد
ويا السمسار

وعيون بسرّ الحب تبوح
وتعرف القلب المجروح
كدا بالمفتوح
ما عليها ستر

وعيون تسبل فوق الخد
وعمرها ما تكلم حد
دى جد ف جد
عيون أحرار

وعيون تحقق فيها بشوق
بتقول لك ابعد عنى بذوق
تهرب على فوق
نظرات نار

وعيون ما تعرف زعلانه أو فرحانه ،
صباح مسا أهى دبلانه صاحبة أفكار

وعيون لها ضحكة ف وشك بس تفشك
وتبص من تحت اليشمك تلقى المنقار

وعيون كدا يبقم ساهتين صفر وباهتين
بالشكل ده عيون الخائنين تضرب بصفار

وعيون تبص وتنسفلق واقفه شلقلق
وعيون تبريق وتبحلق عايزين مسمار

وكانت صحيفة الجمهورية قد خصصت لبرم يوما في الأسبوع
يدبج فيه صفحة من صحفها بفكاهاته التي يكتبها تارة في أزجال ،
وتارة في مقامات ومقالات فكهة . وأخرى في الفوازير البارعة .
وكان كثيرا ما يقلب بعض قصائد قديمة أو حديثة إلى قصائد مرحة ،
وهو بارع براعة منقطعة النظير في الوخر والغمز والتقرير .

الأدبائية

وكان في مصر إلى عهد قريب جماعة من « الأدبائية » ينشدون بعض الأزجال في الموالد يجمعون بها بعض الدراهم من السامعين ، وكانوا يعتمدون في الأكثر على محفوظاتهم ، وقد ينشئون بعض الأزجال من إنشائهم . وأحيانا يحملون « دربكة » صغيرة يضربون عليها كما يضربون على صاجات ، وقد يلبسون طرابيش ، وتراهم يحركون أزرارها حركة دائرة ليضحكوا الناس ، ومن أزجالهم المشهورة :

أنا الأديب الأدبائي ألم العيش تحت بطاطي

ولعبد الله نديم حادثة مشهورة مع طائفة منهم في مولد السيد أحمد البدوي بطنطا ، إذ نشبت بينه وبين الأدبائية هناك معركة زجلية حامية كان النصر فيها حليفه ، وهي مروية بترجمته في كتاب أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد تيمور .

في الكتابات الأدبية

هذه الطوايع الفكاهية طُبعت بها كثير من الكتابات عند بعض أدبائنا البارزين ، وليس معنى ذلك أننا نجدها في أدبنا الفصيح بمقدار ما نجدها في أدبنا الشعبي ، ولكنها موجودة به على كل حال ، وقد

اشتهر بها الشيخ عبد العزيز البشري - في كتاباته الأدبية على نحو ما مر بنا - ونراها بارزة في ملهاة الست هدى لشوقي ، وهى تبرز أيضًا عند توفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف وفى بعض أقاصيصه ، وتتجلى كذلك فى كتابات محمود تيمور وقصصه ، كما تتجلى عند المازنى بصورة بديعة فى كثير مما كتب من قصص وكتب ومقالات ، ولذلك يحسن أن نخصه بكلمة .

إبراهيم عبد القادر المازنى

كان - رحمه الله - فى طليعة أدبائنا المثقفين بالثقافة الغربية ، وكان يعجب أكثر ما يعجب بكتاب الغرب الساخرين من أمثال مارك توين الأمريكى وتورجنيف وهاتزيباشف الروسين ، وكأنما التقت الروح الفكهة المصرية عنده بالروح الفكهة الغربية وما تطوى من سخرية وتهكم على طبائع البشر ومفارقات الحياة .

وبذلك اكتملت له فى أدبنا الحديث شخصية أدبية ساخرة بكل ما فى الحياة من أشخاص وأشياء وآمال وآلام . ونحن نجد هذه الشخصية ماثلة فى مقالاته الأولى التى نشرها بعنوان « قبض الريح » وهى قطع من الأدب الرائع ، ومن طريف ماجاء فيها هذا النقد الساخر للنساء وقصهن لشعورهن تشبها بالرجال ، وتشبه الرجال بهن فى هندمة الملابس وأناقة الأزياء ، يقول :

« الناس فى هذه الأيام آنق أزياء وأنظف ثيابا ، وأبهج بزة منهم

في أى عهد مضى ، ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاما كنت أرى (أفنديا) يلبس طربوشا مبطنًا بالخوص والحريز ، أو يرتدى غير السترة الإستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفي بنيقتها على الرقبة والتي يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، ولم يكن الشيوخ يعنون على الأعم بإحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الجبة على أبدانهم ، أو يتحرون أن يكون لون الخزام مجاوبا لصبغة القفطان أو بأن تكون لفة (الشال) على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر . أما النساء فكان زهن إذا برزن إلى الشوارع يصدّ العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملقوفة في ملأها أم حشوها امرأة تبعثرها الريح . فالآن صارت العين تتعب من النظر إلى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ودع عنك المجتمعات والسهرات . وصحيح أن الرجال والنساء تقاربوا . حسن ليس فى الإمكان أبدع مما كان . لا أدري ممن سمعت أو أين قرأت أن الله سبحانه وتعالى وكل إلى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده - جل وعلا - على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك . ولكنى أحسب الملك الموكول إليه هذا الواجب - إن صح الخبر - قد جدّت على صوته نبرة تهكم لاذع علينا نحن بنى آدم الفانين . ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهم وأن الرجال يخلقن - معذرة

فسيختلط الأمر بكرهى وكرهكم - يحلقون شواربهم ولحاهم ،
ويتخذون من الثياب ما لا يخلص الهواء بينه وبين الجسم ، أمن
أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة
الشكر . نسيت الحرب العظمى وما أفقدت الرجال من خسارة
فادحة في مادة الرجولة لا تعوض في الأجيال ، وكيف احتاج الأمر
أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم في شتى الأعمال ،
وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن . ثم انتقلت عدوى ذلك من
الغرب إلى الشرق كالعادة .

وينشر المازنى بعد ذلك مجموعة من مقالاته الأدبية البديعة باسم
« صندوق الدنيا » وهى مقالات ساخرة فى أكثرها . تنتشر فيها
فكاهته أو دعابته المستملحة ، وقد جاء فى تقديمها :
« كنت أجلس إلى الصندوق فى أيام طفولتى وأنظر إلى ما فيه ،
فصرت أحمله على ظهري وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور
العيش فيها ، عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال الدنيا الكبار
فأحط (الدكّة) وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا
ويعجبوا ويتسلوا ساعة بلاليم قليلة ، يجودون بها على هذا الأشعث
الأعبر » . ونكتفى من هذا الصندوق الفكه بحلاق القرية ، يقول :
« وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة قبل أن
تتغلغل المدنية إلى قراه ، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها ، فقد
عرض على مضيفى أن أستعمل موساه ، فأبيت ، وقلت : مادام

للقرية حلاق فعلى به . فحذرنى مضيفى وأنذرنى ووعظنى ، ولكنى
 ركبت رأسى وأصررت أن يجيء الحلاق فجاء بعد ساعات يحمل
 ما ظننته فى أول الأمر مخلّاة شعير ، وسلم وقعد وشرع يحببى
 ويحادثنى ، حتى شككت فى أمره ، واعتقدت أن الحلاق شخص آخر
 وأن هذا الجالس أمامى ليس سوى طلائعه . ولما عيل صبرى سألته
 عن حلاق القرية ، فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأنى أن الحلاق
 محسوبى يعنى نفسه . فلعلته فى سرى ، وسألته متى ينوى أن يخلق لى
 لحتى . أم لا بد أن يضرب بالرمل والحصى أولاً ويحسب الطالع قبل
 أن يباشر العمل ؟ فلم يفهم ، وأولانى صدغاً كث الشعر ، وقال :
 هيا ، فظننته أصم وصحت به : أريد أن أخلق ، فسرّه صياحى
 جداً ، فدنوت من أذنه وسألته هل فى القرية فيل ؟ فقال : فيل ؟
 لماذا . فأشرت إلى المقتص فضحك وقال : هذا مقتص حمير
 ولا مؤاخذه ، فقلت : ولماذا تجببى بمقتص الحمير ، أحماراً ترانى ؟
 ويظهر أن معاشرّة الحمير بلدت إحساسه ، فإنه لم يعتذر لى ولا عباً
 بسؤالى شيئاً ، ثم أخرج موسى من طراز المقتص و « مكنة » من
 هذا القبيل أيضاً . فعجبت له لماذا يجببى إلى بكل أدوات الحمير ؟
 وسألته عن ذلك فقال : إن الله مع الصابرين . وبعد أن أفرغ
 مخلّاته كلها انتقى أصغر الأدوات ، وأصغرها أكبر ما رأيت فى
 حياتى ، ثم أقبل علىّ ، وقال : تفضل . قلت : ماذا تعنى ؟ قال :
 اجلس على الأرض ، قلت : ولماذا بالله ؟ قال : ألا تريد أن تخلق ؟

قلت ألا يمكن أن أحلق وأنا قاعد على الكرسي ؟ قال : وأنا ؟ قلت في سرى : وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير . وهبطت إلى الأرض كما أمر ، ففتح موسى كالمبرد ، فقلت إن وجهي ليس حديدا يا هذا ، قال : لا تخف إن شاء الله . ولكني خفت بإذن الله ، ولا سيما حين شرع يقول : باسم الله ، الله أكبر ، كأنما كنت خروفا ، ويبصق في كفه ويشحذ موسى على بطن راحته . ثم جذب رأسي فذعرت ونفرت ووليت هاربا إلى أقصى الغرفة . فقال ماذا ؟ قلت أتريد أن تحلق لي بمبرد ومن غير صابون ؟ قال : ماذا يخيفك ؟ قلت يخيفني ؟! لقد دعوتك لتحلق لي لحيتي لا لتبرد شعرها ، قال : يا « افندى » لا تخف . وأسلمت أمري لله وعدت فقعدت أمامه ، فنهض على ركبتيه ، وتناول رأسي بين كفيه ، وأمال صدغي إليه ، ثم وضع ركبتيه على فخذي ، ولف ذراعه حول عنقي ، فصار فمي مدفونا في صدره فصحت أو على الأصح جاهدت أريد الصباح لعل أحدا يسمعي فينجدني ، غير أن طيات ثوبه كانت في فمي ، أما رائحة الثوب فبحسب القارئ أن يعلم أنها أفقدتني الوعي . ولا أطيل على القارئ ، فقد أهوى الرجل بموساه على وجهي ، فسلخ قطعة من جلدي ، فردني الألم إلى الحياة وآتاني القوة الكافية للصراخ ، على الرغم من الكمامة . ووثبت أريد الباب ، ولكنه كان على كبر سنه أسرع مني ، وما يدريني لعله كان يتوقع ذلك ، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظا لأمثال هذه

المحاورات ، فردنى بقوة ساعده ، فتشهدت وتذكرت قول المتنبي :
وإذا لم يكن من الموت بُدُّ فمن العجز أن تموت جبانا

ثم جاء هذا السفاح بطست يفرق فيه كبش ، ووضعه تحت
ذقنى ، وصب مادة على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى ، ليغسل
الدم الذكى الذى أراقه ، وأخرج من مخلاته منشفة هى بمسحة
الأرض أشبه ، فاعتذرت ، وأخرجت مندىلى ، وسبقته به إلى
وجهى . وهى معركة لا تزال بجلدى منها ندوب وآثار .

وفى صفحة أخرى من صندوق الدنيا نراه يسير على ظهر حمار
فوق قنطرة على ماء ، يقول : « فلما توسطها الجحش بدا له أن
يقف وراقه منظر الماء ، فأجال فيه عينيه برهة ، ثم خطا إلى حافة
الجزر ، ولم يكن له حاجز ومد عنقه إلى الماء ، فظننت أنه قصير
النظر ، وأنه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله فى الماء واجتلاء
طلعته البهية فى صقاله ، ولكنهم قالوا لى إنه كان يريد أن يشرب ،
فنزلت عنه ، وقلت له يا عزيزى إن من دواعى أسفى أنى مضطر
أن أتركك إلى الماء وحدك فإن ثيابى يفسدها الماء ، وهى غالية إذا
كانت حياى رخيصة . ولكن بعد أن فكر قليلا غير رأيه ، إما لأن
الصورة التى طالعتة فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز
الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية
أخرى لم يكشفنى بها . »

وتسرى هذه الروح الفكهة في قصص المازنى على نحو ما تسرى في مقالاته ، فمن ذلك وصفه لخادمتة في كتابه أو مجموعته القصصية « عود على بدء » وهى تجرى على هذه الشاكلة :

« لا أطلب منها شيئا إلا وتجيئني بخلافه ، أقول هاتى الكبرى ، وليس فى لفظ الكبرى ولا فى حروفه ما يمكن أن يلتبس بالجبن الرومى ، وهى ليست بالصماء ، فإن سمعها كسمع القطعة ، وأنا خفيض الصوت ، ولكنى أتوخى معها أن أزعم وأصيح حتى يبع صوتى ويوجعنى حلقى ، وأمضى يوما أو يومين . ومع ذلك لا تكاد تسمعننى أطلب الكبرى حتى تقول حاضر ، وتعتمد إلى ملاءة سوداء تلفها على نفسها - فانها حيية - وتخرج ، فتشتري لى جبنا ، قد يكون روميا غير مزيف أو مقلدا ، ولكنه لم يخطر لى على بال ولا كانت لى رغبة فيه . وأراها مقبلة على ، تحمل على كفيها صينية عليها طبق فيه الجبن الرومى وشوكة وسكينة وفوطة ولقمة ، فإنها تدرك من تلقاء نفسها وبغير حاجة إلى تلقين أن الجبن الرومى لا يؤكل وحده فلا بد من خبز معه ، ومادام سيدها يأكل وقد اشتتهت نفسه الجبن الرومى فهل تتركه يوسخ يده ؟ معاذ الله ، وهذا هو تفسير الشوكة والسكين . وأنظر إلى هذا الذى على يديها . فأتميز من الغيظ ، وأكاد أطق وأنفلق ، ولكنى ألم نفسى بجهد ، وأهز رأسى وأروح أتعجب لقدرة ربى على خلق كل هذه الأصناف من الناس . هذه امرأة لها كل مالى تقريبا من الأعضاء ، وليس ينقصها

شئ ، وهى تتكلم العامية التى نتكلمها ولا أعرف لها لغة غيرها ،
ومع ذلك لكل لفظ فى هذه اللغة معنى عندها غير معناه عندنا
فالكبريت معناه الجبن الرومى ، والكتاب معناه طاحونة البن ،
والكلب معناه الخيط والإبرة ، والكمون معناه السجائر . حتى لقد
خطر لى أن الألفاظ التى تبدأ بالكاف هى التى انفردت عندها بهذا
الحال المقلوب .

وأنا أحصى هذه الألفاظ إيثارا للراحة وأثبت معانيها إلى
جانبى ، ليتسنى لى أن أخطبها بلغتها ، فأقول لها مثلا : خذى
اشترى لى كمونا ويكون مرادى السجائر أو هاتى كلبا وخيطى هذا
الزرار . وإذا مررت بالصانع الذى يصلح طواحين البن قلت :
« خذى الكتاب فأصلحيه عنده او اشترى لنا كرنبا أى بترولاً » .

وبهذه الفكاهة وما تحمل أحيانا من تهكم وسخرية كان يكتب
حتى عن نفسه وزوجه وأهله ، ومن حديثه الفكاهة عن نفسه فى
مجموعته القصصية « فى الطريق » قوله :

« لست أخشى اللصوص ، فإمعى ولا فى بيتى ما أخشى عليه
الضياح ، وأتقى أن أئمنى فيه بالخسارة ، ولو أن لصا كرميا فيه مروة
دخل بيتى - أو حيث أقيم فما هو بيتى - وحمل ما فيه من متاع
لحملته شكرى ولبعثت بنسخة منه إلى الصحف فإن من اللوم أن
يقابل الأحسان بأقل من الشكر . وإن فى قولى متاعا لتجوزا فى
التعبير وإغراقا فى حسن الظن بالقراء ، فما أرى لى متاعا فى شئ »

بما حولى . وسبب آخر يجبرنى على لقاء اللصوص ويجعلنى لا أتهيئهم ، وذلك أنى كما تعلم - أو كما لا تعلم - ضامر ضاو ظاهر الضالة بادی الضعف . وأوجزُ تعريفِ بنفسى يحضرنى الآن هو إنى امرؤ فارغ الثياب .» وفى موضع آخر يتحدث إلى زوجته على هذا النحو :

« إن من الواضح أن تربيتك ناقصة جدا! هذا أنا بجلال قدرى أكلمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لا تجيبين » فقالت زوجتى أخيرا وألقت ما بيدها ، وكان شيئا تطرزه أو لا أدرى ماذا تعنى به : « إنى لست اليوم كفؤا لك ولهزلك فاسكت من فضلك » . قلت : « هذا بديل جميل من الاعتذار ، ألا تستحين يا امرأة ؟ ثم ما هذا الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك ؟ » قالت : « أرجوك ، أرجوك يا مسلم ، ثم إن الطباخة خرجت . » فانتفضت واقفا ، وصحت : «نهارك أسود» .

وهذا الأسلوب الفكه الساخر كان المازنى يكتب بعض مقالاته وقصصه مستغلا للطبائع ومصورا للمآزق والمواقف ومتخذًا من افتراق العقليات والأمزجة مادة خصبة لما يريد من ألوان الفكاهة وصورها التى تعبر تعبيرا دقيقا عن ظرفه وخفة روحه مستخدما لذلك أقرب لفظ وأسهل أسلوب .

ولعل في كل ما سبق ما يدل دلالة واضحة على أن الفكاكة
تتعمق روح المصريين من أعماق عصورهم إلى عصرنا الحديث ،
فهى الزيد يعلو دائما على سطح حياتنا ، بل وكأنها الجواهر النفيس
فى مزاجنا وطباعنا ، وهى لذلك دائمة البريق واللمعان فى مجالسنا
ومحافلنا وعلى شفاهنا وأفواهنا .

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
الفكاهة	٩
في مصر القديمة	١٧
في العصور الإسلامية الأولى	٢٥
في العصر الفاطمي	٣١
في العصر الأيوبي	٣٩
في العصر المملوكي	٥٣
في العصر العثماني	١٠٧
في العصر الحديث	١٢١

رقم الإيداع	٢٠٠٤/١١٠١٧
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6667-1

١/٢٠٠٤/٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)